صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKAOHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية تصدر في دمشق

دمشق ـ ص٠ب (٢٥٧٠) هاتف ٢٢٩٩٨٤

تشرين الثاني
١٩٧٦

اشراق بطل

بقلم : رئيس التحرير

ويقلب التاريخ صفحاته ، فيمر ببعضها سريعا ، ويقف عند بعضها مستأنيا ، انها الصفحات المشرقة ، التي تعطي خير عطاء وتؤثر أبلغ تأثير في حياة الناس ... ومن هذه الصفحات ، التي يقف عندها التاريخ مستأنيا ، صفحات ستة ، هي ست سنوات ، من عمر الحركة التصحيحية المشرقة .. غيرت من مجرى الاحداث ، وبدلت مسار أمور في هذا القطر العربي السوري ، كانت تندفع في اتجاه آخر .

ان الاحداث في التاريخ لا تصنع نفسها ، ولا تندفع من ذاتها ، وانما يصنعها رجال أولو عزم ، يدفعونها في صراطها المستقيم .

كانت الحركة التصحيحية من صنع بطل فذ ، رأى ، ببصيرته الوقادة ، الانحراف ، ووجد الثورة موجهة في غير مسارها الصحيح ، فقوم المعوج ، ورأب الصدع ، وعدل مسار الثورة ، الى حيث تحقق أهدافها .. ذلكم البطل هو الرئيس القائد حافظ الاسد .

ولو أردنا أن نستجلي هذه الصفحات الستة من تاريخ قطرنا الحبيب ، لوجدنا فيها الكثير من الاشراق ..

بناء سياساً واجتماعياً واقتصادياً وبناء قوة متينة ، ترهب العدو ، ويأنس بها الصديق . حررت أرضا من مغتصب صلف فمرغت انفه بالتراب انها حركة عظيمة ، صنعها بطل فذ !..

العربية بين الفصحى والعامية

عارف النكدي

كل قوم معجبون بلغتهم ، والعرب الصراح في مقدمة الاقوام ، اعجابا بلغتهم وبتراثها ،وعملا على وحدتها ومكانتها ، والاحتفاظ لها بالمنزلة السامية التي كانت لها بين سائر اللغات • وهو اعجاب عبر عنه قديما أبو الخطاب ابن دحية في كلمته الجامعة الرائعة التي يقول فيها :

« اعلم أن الله تعالى لما وضع رسوله صلى الله عليه وسلم موضع البلاغة من وحيه ، ونصبه منصب البيان لدينه ، اختار له من اللغات أعربها ، ومن الالسن أفصحها وأبينها ، ثم أمده بجوامع الكلم » •

وهذه الكلمة على ما فيها من ايجاز واقتضاب ، تغني عن كثير من الاسهاب والاطناب ، فالعربية صالحة لكل زمن ، غنية بمشتقاتها واستعاراتها بحيث تتسع لكل مستحدث وجديد •

وليس هؤلاء العرب وحدهم معجبين بهذه اللغة متعلقين بها(١) ، فلقد شاركهم في هذا الاعجاب كثير من غير أبنائها ، من المستشرقين الذين عرفوا أسرارها ، وتبينوا حقائقها ودقائقها ، بعد أن اطلعوا على ذخائرها وكنوزها • ومنهم من أعجب بها وتعشقها عن سماع ، لا عن اطلاع •

فلقد وقع في يدي كتاب بالفرنسية كان بعث به الى الامير شكيب أرسلان ـ رحمه الله ـ عالم ألماني هو الدكتور (ويدمر) أحب العربية واستهوته ، عن معرفة عنها ، لا عن معرفة بها ، فكتب الى الامير ، وعن غير معرفة شخصية به ، يقول له ما ترجمته بالحرف :

« أشكر لك فضلك على هذه المعلومات التي أفدتنيها • واني لاعرف أنه من الصعب أن أجد في سويسرة عربيا يساعدني على القراءة ، وعلى تتبع النصوص العربية القديمة والحديثة • وهذا كتابك الثاني يؤكد ما ذهبت اليه • على أن هذا وأكثر منه ، لا يثنيني عن عزمي وعما أجمعت أمري على المضي فيه •

ان تحمسي لهذه اللغة الرائعة ، وتعلقي بها ، ملكا علي مشاعري ، وجعلاني أسعى السعي كله لاجد عربيا : مصريا أو سوريا ، متضلعا من العربية ، متحمسا لها تحمسي ، عنده ما عندي من الرغبة في هذه اللغة وفي نشرها ، أصل معه الى ما أريده من التعمق في العربية والتمكن من آدابها •

واني أرى رأيك : أنه يصعب على غريب عن لغة أن يتعمق فيها ، اذا لم يكن على كبير علم بها • وأكرر القول : أنني أكون شاكرا اذا أنت هديتني الى عربي لم أهتد اليه ، يوصلني الى ما أبغي الحصول عليه •

واني مدين لك بما أسديته لي من نصائح ومعلومات •

ملاحظة : هل تاذن لي أن أكتب اليك بعد اليوم باللغة الالمانية ؟ »

* * *

ويقول العالم الفرنسي (مارسي) في مجلة التعليم الفرنسية ١٩٣٠ ـ ١٣٩١ :

« من السهل جدا تعلم أصول اللغة العربية ، فقواعدها التي تظهر معقدة لاول نظرة ، هي قياسية ومضبوطة بشكل عجيب يكاد لا يصدق • فذو الذهن المتوسط ، يستطيع تحصيلها بأشهر قليلة ، وبجهد معتدل •

ان الفعل العربي ، هو لعبة أطفال اذا ما قيس بالفعل اليوناني ، أو بالفعل الفرنسي • فليس هناك صعوبة بالاشتقاق ، أما النحو فسهل ، لاتعقيد فيه مطلقا » •

(١) من تعلق العرب بلغتهم : أن أبا هاشم عبد السلام الجبائي ـ من أئمة المعتزلة ـ كان ياخذ علم النحو عن المبرد • قيل : وكان في المبرد سخف •

فقيل لابي هاشم : كيف تتحمل سخف الرجل ؟

فقال : احتمال سخفه ، ولا الجهل بالعربية •

ويقول المستشرق « جاك برك » :

« مستقبل الادب والمسرح في العالم العربي يقوم على اللغة العربية الفصحى وحدها ، فهي لغة زاخرة بالثروة والتراث . وليست اللهجات العامية باللغات الاصيلة ، فهي تحريف عن الفصحى وتشويه لها . ولن تقوى هذه اللهجات الهزيلة على اقتحام أسوار التراث العربي المنيع الاصيل » .

أما المستشرقة الالمانية .. الدكتورة في الفلسفة « آنا ماري شيمل » التي عدت منذ صغرها معجزة العلم ، والتي وضعت المقدمة الممتعة للترجمة الالمانية للقرآن الكريم ، وهي التي ينتظر عشاق العربية من الالمان ، ظهور كتابها في قواعد اللغة العربية بشوق كبير ـ فانها تقول ..

« اللغة العربية لغة موسيقية للغاية ، ولا أستطيع أن أقول فيها الا أنها لا بد أن تكون لغة الجنة » .

ويقول المستشرق الانكليزي « نيكلسون » بعد أن يصف اقبال أبناء الاندلس على اللغة العربية ، وشغفهم بها وافتنانهم بآدابها ، ان كاهن قرطبة (انفارد) آلمه أن أبناء مذهبه أقبلوا على دراسة العربية ، وقراءة أشعارها ومطالعة أساطيرها اقبالا عجيبا .

ويرفع صوته شاكيا فيقول ..

وقل أن تجد فردا من أبنائنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة . ان الشبان أصحاب المواهب وسائر المثقفين لا يعرفون غير العربية ، ويغالون في شراء كتبها والمفاخرة بآدابها ، وا أسفاه ! نسوا لغتهم ، حتى ليتعذر على الواحد منهم أن يكتب الى صديق له رسالة باللاتينية صحيحة العبارة . على حين يعبرون عما يخالج نفوسهم بأسلوب عربي فصيح . ويقرضون الشعر العربي بما يفوق شعر العرب أنفسهم . »

ويقول آخرون .. « ان من كهنة أسبانية من يقيمون صلواتهم ويمارسون طقوسهم الدينية باللغة العربية » .

هذا وكثير من أمثاله ، لا يمنع نفرا من العرب العاقين لغتهم ، والضالعين فيها ، عن أن يسيروا في ركاب جاهل أو مستعمر ، يقول باللغة العربية العامية ، أو كما وقع أخيرا بلغة لبنانية .

على أن تعصبنا للعربية الفصحى ، وتعلقنا بها ، ومغالاتنا في التعالي بها عن أن تهبط الى منخفض اللغة العامية ـ وما قلناه مرارا وفي كلمة سابقة ـ لا يبلغ بنا أن نقطع ما بين الفصحى والعامية من صلة ، وأن نجعل بينهما حاجزا منيعا ، يحول دون أن يتسرب لفظ عامي ـ ولو صالحا ومقبولا وفصيحا ، وفي حاجة اليه ـ الى اللغة الفصحى ، فيستعمله مؤلف أو كاتب أو شاعر أو ناثر في ما يقوله أو يكتبه ، وأن ينظمه رجال اللغة في ما يضعونه من دواوين ومعجمات .

لقد أكثر الناقدون اللغويون ـ في مطلع هذه النهضة اللغوية والادبية ـ من نقد من يستعمل كلمة لم ترد في كتب اللغة ، ومن تعبير أو استعمال لم تعرفه العربية من قبل ، فحجروا واسعا ، وعسروا يسيرا .

والانسان في حاجة الى ألفاظ يعبر بها عن أفكاره وأغراضه ، فاذا هو أخطأ في ما استعمل ، أو ظن به ذلك ، فليس من حق الناقد أن يقول له .. أخطأت ، ويقف ، بل عليه أن يقول له .. لا تقل هذا ، بل قل هذا . أما اذا لم يجد الناقد اللفظ الصحيح يهدي المخطىء اليه ، فكأنه أراد أن يحبس لسانه عن الكلام . وهذا شيء غير جائز ولا مستطاع .

لقد وقفت الخاصة برهة من الزمن ، لا تجد اللفظ الصحيح تعبر به عما جاء به العصر الحاضر وحضارته من أغراض ومعان ، حتى اتهمت العربية بالعقم ، الى أن كانت النهضة الاخيرة ، فانطلقت الالسن من عقالها ، والاقلام من لجامها ، فوجد رجال اللغة والادب عن طريق الاشتقاق والاستعارة سبيلا الى ألفاظ كثيرة يعبرون بها عما يحتاجون اليه من أغراض ومعان ـ فوفقوا توفيقا غير قليل ، وهم ماضون في ما بدأوا به ، الى أن يبلغوا ما تقتضيه حاجات اللغة في عصرنا الحاضر .

كان ذلك ، على حين مضت العامة في لغتها مضيا محمودا من قبل ، ومن بعد ، والى يومنا هذا ، لا يعجزها غرض أو معنى ، أن تجد له اللفظ يليق به وينطبق عليه .

وذلك بأن ..

١ ـ استعملوا ألفاظا صحيحة فصيحة ربما كانت اندثرت لولا استعمالهم لها .

٢ ـ استعاروا ألفاظا عربية أصيلة لمعان جديدة .

٣ ـ أحدثوا عن طريق الاشتقاق ألفاظا يحتاجون اليها في حياتهم العملية .

٤ ـ اختاروا السائغ المقبول من الالفاظ التي تعددت فيها اللغات وان خالفوا الخاصة في اختياراتهم .

أولا ـ فمن الالفاظ القاموسية التي استعملتها العامة ولعلها كانت تنوسيت ، أو تنوسي بعضها لولا استعمال أصحاب المهن والصناعات لها . وقد يكون في

بعض الخاصة من يجهل أنها عربية النجار ، فصيحة الاصل ، من ذلك ..

١ ـ الزفر أو الظفر ، درجة من السلم . والعامة من البنائين يلفظونه بالزاي . وهو عندهم حجر ناتىء في البناء مستطيل كالدرجة أو العتبة ، تلقى عليه العمد أو البلاط (٢) .

٢ ـ الساف : والساف في كتب اللغة ، كل صنف من اللبن أو الآجر في الحائط ، وهو المدماك .

٣ ـ المدماك : الصف من البناء(٣) .

فاللفظان صحيحان : والعامة تكثر من استعمالها الا أنها فرقت بينهما تفريقا دقيقا ، فغلبت المدماك على الصف من الحجارة بوضع بعضه فوق بعض . وعمت الساف فجعلته الصف يوضع بعضه فوق بعض ، في البناء وفي غيره .

٤ ـ الفاس : آلة من حديد حادة الشفرة عريضة السن لها هراوة ملساء من الخشب . تقول كتب اللغة .. يحفر بها ويعزق ، وليس الحفر والعزق من عملها . بل عملها قطع الغليظ من الشجر والحطب ، وهو ما خصتها به العامة .

٥ ـ المعول : أما الحفر والعزق فمن عمل المعول ، لا نقر الصخر ، وان نصت عليه المعاجم .

٦ ـ القدوم : بتخفيف الدال . وتشديدها لغة فيها . أجازها بعضهم وأنكرها آخرون . وجمعها « قدائم وقدم » وقيل قدائم جمع قدم ، مثل قلائص وقلص . وهي مؤنثة والعامة تذكرها . وتشدد دالها ـ جريا مع من يقول بالتشديد ـ وتجمعها على قداديم .

وليست هي المنحت والمنحات كما جاء في كتب اللغة، وان كان صقل الخشب أو نحته من عملها أحيانا .

وأنشد الفراء :

فقلت أعيراني القدوم لعلني
أخط به قبرا لابيض ماجد

٧ ـ العرقة : من معانيها لغة .. خشبة توضع معترضة بين ساقي الحائط ، يشد بها البناء ويقوى . أطلقها البناءون على CHAINAJE وهو الرباط . واللغة الفرنسية (شاناج) يستعملها أكثر المهندسين الى اليوم . على حين تستعمل العامة اللفظ العربي الفصيح .

٨ ـ المنحت والمنحات : في كتب اللغة آلة النحت كالقدوم . غير أن أصحاب الصناعة من الحجارين خصوا النحت بالحجارة . وكأنهم أخذوا ذلك من قوله تعالى في سورة الشعراء : « وتنحتون من الجبال بيوتا » وهو النحات وصناعته النحاتة . والنحات من أسماء بعضهم .

٩ ـ المنقش والمنقاش : آلة من حديد ينقش بها. وهو النقاش وصناعته النقاشة . وأكثر ما يستعمل في نقش الحجر . وعليه قولهم : « العلم في الصغر كالنقش في الحجر » . وبالنقاش سمي بعضهم .

١٠ ـ المثقب .. آلة من حديد تستعمل للثقب في الخشب والحجر .

١١ ـ النجاف .. ما بني بارزا فوق باب أو شباك منعا للمطر .

١٢ ـ المصطبة .. بناء مرتفع يجلس عليه . وأصحاب المصاطب قوم كانوا يجلسون عليها ، يستدعون للشهادة أمام القاضي ـ أشبه شيء بكتاب العدل في يومنا هذا ـ وتصغير المصطبة .. المصيطبة ، وبها سمي حي من أحياء بيروت .

١٣ ـ الدسار .. لغة حبل من ليف تشد به ألواح السفينة . وعند العامة مسمار حاد الطرفين (ذو رأسين) يدخل بين خشبتين فيجمعهما حتى يصيرا وكأنهما لوح واحد. وفي القرآن الكريم .. « وحملناه على ذات ألواح ودسر » الى كثير من أمثال هذه الالفاظ التي يستعملها أصحاب المهن والصناعات والاعمال « كالرزة ، والرفش ، والمبرد، والمجرفة ، والملزمة ، والمنجل ، المنشار ، وغيرها .

ثانيا .. ألفاظ استعارتها العامة للتعبير عن أشياء مستحدثة ..

١ ـ البطيخة .. قلب (الدولاب) تجتمع اليه ، أضلاع الدولاب في العربة أو السيارة ، أو تتفرع عنه .

٢ ـ البندق .. وعلى ما جاء في بعض المعجمات الحديثة معرب « فندق » . بالفارسية .. وهو طين مدور يرمى به . ولم تستعمل العامة هذا اللفظ لهذا المعنى ، غير أنها نسبت اليه هذه الآلة الحربية فقالت «البندقية» .

٣ ـ بيضة القبان .. أطلقوها على كرة من نحاس أشبه ما تكون بالبيضة ، يعرف منها وزن الاشياء التي

---

(٢) وفي (جمهرة نسب قريش وأخبارها) أن عامر بن عبد الله انهدمت اظفار من درجته فبات تلك الليلة في الدار .

(٣) والعامة تقول على الحقيقة يناه (مدماك مدماك) كما قال الاصمعي على المجاز :

ألا يا نافض الميثاق   مدماكا فمدماكا

ترفع بالقبان • وفي الوسيط •• سموها رمانة القبان • فان لم تكن العامة في مصر تستعمل « الرمانة » فان « البيضة » أوفق ، وهي معروفة في الشام •• داخله وساحله • وتستعمل في لبنان للدلالة على قيمة الرجل ، أو الجماعة فيقولون هو « بيضة القبان » أو هم « بيضة القبان » حيث مالوا رجحوا •

٤ ــ التفاحة •• تستعمل لما يمسك الباب أن يفتح من نفسه ، وهي دون القفل ولا بد للباب منها • وكانت أشبه شيء بالتفاحة وعادت اليوم في شكلها الى مثل ما كانت عليه •

٥ ــ الحية •• الحيوان المعروف ، أطلقوها على الانابيب الصغيرة التي يجري فيها الماء وجمعوها جمعه • فقالوا « حيات الماء » ومن التوافق أن العرب أطلقوا قديما على مجاري المياه « الثعبان » وهي الحية الضخمة ، أو هي الحية مطلقا •

٦ ــ الديك : أطلقوه على الجزء من السلاح • وهو شبيه برأس الديك ، اذا ضغط عليه فضرب موضع النار انطلقت الرصاصة من البندقية أو القذيفة من المدفع • وأبت الخاصة ذهابا بنفسها من أن تستعمل ما استعملته العامة فأطلقت عليه « الطارق » وبين الاستعمالين فرق • والديك هنا خير من الطارق وأخص •

٧ ــ الرديف : لغة •• الراكب خلف الراكب • استعمله البناؤون للمدماك يوضع على حفاف السطح تثقيلا له ، ومنعا للامطار والثلوج أن تسيل على الحيطان •

٨ ــ السبلة كالسنبلة : من القمح والشعير رأسها الذي فيه الحب والحسك أطلقوها على المبرد الصغير المثلث الاضلاع لشبهها به •

٩ ــ السليخ : الارض العراء ، لا شجر فيها •

١٠ ــ الشوكة واحدة الشوك أطلقوها على ••

أ ــ ملعقة ذات أسنان أربع تؤكل بها الجوامد •

ب ــ معول ذي أصابع تعزق به الارض •

جـ ــ آلة من حديد كالازميل الا أنها أشد منه وأقوى يستعملها البناء والبلاط والنجار •

١١ ــ العروس : يستعملها النجارون لعمود مستقيم توضع عليه الاخشاب التي تحمل القرميد لما يعرف عندهم بـ (التكنة) •

١٢ ــ العفريت : آلة تستعمل لرفع الاثقال ، ولاسيما السيارات ، وقد يكون العفريف أصلح من «الرافعة» التي يستعملها بعضهم •

١٣ ــ العقرب •• في الساعة يشير فيها الى الساعات والدقائق •

١٤ ــ الفارة •• سمى بها النجارون آلة صغيرة يستعملونها لنجر الخشب وصقلها وهي شبيهة بالفارة « الحيوان » شكلا وعملا • وهي خير من المسجح التي أطلقتها عليها بعض الخاصة •

١٥ ــ الفرس •• ضلع قوي مستطيل يلقيه النجارون الى جانب « العروس » التي ذكرت قبلا مساعدة لها في حمل « التكنة » •

١٦ ــ القمحة •• عند العامة •• الهنة الصغيرة توضع على فوهة البندقية أو المدفع لتسديد الطلقة واصابة الهدف • وضع لها العسكريون « الهادي » وكان الترك قد أبدلوا بـ « القمحة » « الشعيرة » • و «القمحة» التي استعملتها العامة خير من « الهادي » ومن «الشعيرة» وهي أشبه شيء بـ (القمحة) النباتية حجما وشكلا •

ثالثا •• ألفاظ أحدثوها ، منها ••

١ ــ البندقية •• وقد سبق ذكرها •

٢ ــ الطراحة •• حشية مربعة أو مستطيلة • تطرح للزائر ليجلس عليها • ثم صارت توضع حيث تستقبل الضيوف ، قبل أن اتخذت المساور (٤) (الكنبايات أو القلاطق) ولا تزال مستعملة الى اليوم •

٣ ــ الجبالة •• آلة يجبل بها الطين •

٤ ــ الجرارة •• تجر بها الاثقال •

٥ ــ الحفارة •• لما تحفر بها الارض •

٦ ــ والعجانة •• لما يعجن بها الدقيق •

٧ ــ القطاعة •• تقطع بها الحجارة •

٨ ــ الكسارة •• لما يكسر بها صغار الحجارة أو الحصى •

٩ ــ النقالة : تنقل بها الاشياء • الى عشرات من هذه الاشياء التي أحدثتها الحضارة والعمران ، فأحدثوا لها هذه الاسماء •

١٠ ــ الفراطة : أطلقوها على هذه القطع الصغيرة من النقد • وفرط العقد والعنقود في لغة المولدين •• فرقه وبدده •

١١ ــ الفراعة : الفأس الصغيرة •• لقطع الغصون أو تشذيبها • وفرع الشيء لغة ، جعله فروعا •

(٤) المسور ، والمسورة : متكا من جلد يجلس عليه •

١٢ ـ الجل ـ في لبنان ـ قطعة صغيرة من الارض لها حائط وحد معلوم • يرتفع بعضها عن بعضها الاخر•

١٣ ـ الخنصر : فاذا ضاق جل عن جل ، وقصر عنه ، سموه خنصرا ، تشبيها له بخنصر اليد ، لقصره وصغره عن سائر (الجلول) : قصر الخنصر عن سائر الاصابع •

١٤ ـ العائلة : أطلقوها على عيال الرجل ، وأهله الادنين • وهي فاعلة بمعنى مفعولة • وفاعل بمعنى مفعول ، ومفعول بمعنى فاعل كثير في العربية •

١٥ ـ الغدارة : أطلقوها على هذا السلاح الناري، يحشى بالبارود والرصاص ، ذلك لما فيه من الغدر ، اذا هو قيس بالسلاح الذي كان يشهر علانية كالرمح والسيف• وللغدارة أنبوبان •

١٦ ـ الفرد : ولما عرف الفرد وهو ذو أنبوبة واحدة أطلقو عليه هذا الاسم ، ثم أبدلت الخاصة بلفظ (الفرد) المسدس • يوم بدأ بست طلقات • ثم صار بخمس وبعشر ، وظل على اسمه (المسدس) •

١٧ ـ مسك الدفاتر : طريقة حسابية لا غنى عنها للتجار • أنكرها بعض المتشددين بحجة أن الفعل مسك به ، وأمسكه ، لا مسكه • فكان يجب أن تكون : « امساك الدفاتر » لا « مسك الدفاتر » • و « مسك الدفاتر » أخف من قولهم « امساك الدفاتر » •

وليس هذا بالمأخذ الذي لا يتفلت منه • فقد جاء عن العرب كثير من المصادر التي خالفت الافعال • فقالوا : ـ عطاء ـ من ـ أعطى ـ و ـ مبروز ـ من ـ أبرز ـ و ـ قارب، من (أقرب) لا (مقرب) و (مسعود) من (أسعده) و (مضعوف) من (أضعفه) •

١٨ ـ الطلقة : الدفعة الواحدة من البندقية أو المدفع • أنكرها بعضهم لان ماضيها (أطلق) لا (طلق) ويقال في « طلقة » ما قيل في مثله (طلقة) بالنسبة الى (اطلاقة) وأكثر من هذا فالعرب توسعوا ـ على ما سبق فقلنا ـ فاستعملوا المفعول بمعنى الفاعل ، والفاعل بمعنى المفعول••

فقالوا : ماء (شروب) أي يشرب ، وبئر (غروف) أي يغرف ماؤه ، وفرس ركوب أي يركب •

قالوا هذا على حين فعول أكثر مجيئه بمعنى الفاعل :

رجل غيور ، وكذوب ، وكفور ، وملول ، وشكور •

١٩ ـ العروس •• لفظ يطلق على كل من الرجل والمرأة •• ما داما في عرسهما • وهما العروسان • هذا هو النص اللغوي • الا أن العامة استنكرت أن تقول •• للرجل العروس في اعراسه ، فاستعملت العريس • وله وجه وان كان بعيدا • حملت هذا على •• الزوج والزوجة • والغريب أنهم فرقوا بين العروسين جمعا ولم يفرقوا بينهما مفردا • فقالوا •• وجمع العروس للرجل •• أعراس وعرس • وللمرأة •• عرائس •

٢٠ ـ الفرس •• تطلق على الذكر والانثى • قال ابن سعيد •• وأصله الثأنيث • وعلى هذا جرت العامة • فالفرس عندهم للانثى • وللذكر الحصان (٥) •

٢١ ـ الفطيرة •• رقاق من العجين تحشى بالتوابل ويثنى بعضها على بعض •

٢٢ ـ المنقوشة : رغيف مستدير أو مستطيل ، ينقش بالاصابع وتوضع عليه التوابل ، وتوابلها تختلف عن توابل الفطائر •

٢٣ ـ الكف : استعملته العامة لما يلبس باليد من جلد أو صوف وجمعه كفوف ، وهو خير من القفاز وجمعه قفافيز الذي تستعمله الخاصة في مفرده وجمعه ••

٢٤ ـ الوصفة : أطلقت على التذكرة يعطيها الطبيب يعين فيها أجزاء الدواء • سموها حينا « الروشته » وهي لفظة فرنسية racette مأخوذة عن اللاتينية racepte ثم غلبوا عليها « الوصفة » فأنكرها بعض المتشددين بأن فعلها وصف فكان يجب أن يقال فيها « صفة » لا « وصفة » وفي قولهم « صفة » من اللبس ما لا يصلح معه استعمالها ومن المصادر عشرات تثبت فيها هذه الواو : مثل :

وعدة ، وومضة ، ووقعة ، ووحدة و ••• و •••

ونخلص من هذه الامثال التي ضربناها في ما استعير وفي ما أحدث الى نتيجة من نتيجتين •

١ ـ اما أن يجد رجال التحقيق وجهابذة العلم

(٥) والعرب جروا على مثل هذا التفريق • فالطرب : خفة تاخذ صاحبها من فرح أو حزن فخصوها بالفرح • والمأتم : مجتمع الناس في فرح أو حزن فخص بالحزن •

والنظر في دواوين اللغة ومعاجمها ، ما يسد مسد هذه الالفاظ التي لا بد منها ولا غنى عنها ٠

٢ ـ واما أن يقروا هذه العامة ، وبعض خاصتها ، على ما استعاروه وأحدثوه ، ويدخلوه في المعاجم ٠

رابعا : ما خففوه أو هذبوه ٠ من ذلك :

١ـ الرز : نبات حولي ـ واللفظ في أصله غير عربي لعله مأخوذ من التلياني ٠ وفي هذه اللفظة سبع لغات بين فتح وكسر وتحريك وتسكين ، ومن هذه اللغات « الرز » اختارتها العامة دون سواها من اللغات ٠ أما الخاصة فتأبى أن تجاري العامة في اختيارها فلا تقول الا (الأرز) ، وان كانت « الرز » تفضل (الارز) أسهل لفظا وأخف على السمع وقعا ٠ وفي « الارز » التباس في الرسم بين « الارز » الشجر العظيم الصلب ، و ـ الرز ـ النبات الحولي الهش ٠ ونحن نقول في بائعه ـ الرزاز ـ وفي النسبة اليه ـ الرزي ـ وبه سمي بعضهم ، وحرفته ـ الرزازة ـ وموضعه ـ المرزة ـ وكله مما نصت عليه كتب اللغة وهو من ـ الرز ـ لا من ـ الأرز ـ ٠

٢ ـ الاوز : بكسر ففتح ٠ وهو الطير المعروف ٠ والعامة تسقط الهمزة من أوله فتقول ـ الوز ـ وهو وارد ، والنسبة اليه ـ الوزي ـ وبه سمي بعضهم ـ والموزة ـ الارض يكثر فيها ـ الوز ـ وهي من ـ الوز ـ لا من ـ الاوز ـ ٠

٤ ـ الدراق : الثمر أو الشجر المعروف ٠ وقيل في اللفظة أنها رومية الاصل ، وفيها لغات : منها ـ الدراق ـ التي تستعملها العامة ٠ والدراقن التي تستعملها الخاصة ٠ والدراق وزان : ـ رومان ـ وتفاح وسماق وعقاب ، فلم لا تقول الخاصة فيها ما تقوله العامة ـ دراق ـ وهي لغة من لغاتها ٠ ووحداتها ـ درافة ـ كرمانة وتفاحة والنسبة اليها ـ دراقي ـ ويستثقل جدا اذا قيل ـ دراقني ـ مع بقاء النون ٠

٤ ـ الرغم والسم : وهما مثلثان ٠ اختارت العامة فيهما الفتح وهو أخف ، واحتفظت كثرة الخاصة بالضم ٠ وفي فتح ـ السم ـ تفريق ـ بين هذه المادة السامة ، وسم الخياط : أي ثقبه ٠

٥ ـ الخروب : شجر ينبت في جبال الشام وفيه لغتان : الخرنوب ، بنون بين الراء والواو وعليه أكثر الخاصة ، اذ كتبوا ، والخروب باسقاط النون ٠ وعليه العامة ٠ وفي بعض المعجمات : الخرنوب لغة في الخروب، ومعنى هذا أن ما عليه العامة هو الاصل ٠ والمعروف في النسبة خروبي لا خرنوبي ٠ ففي « خطط المقريزي » بعنوان : (المدرسة الخروبية) : هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر أنشأها بعد ستة وخمسين وسبع مئة بدر الدين محمد الخروبي (بفتح الخاء المعجمة ، وتشديد الراء المهملة وضمها، ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة ، ثم ياء آخر الحروف) ٠

يقول المقريزي : وشرط بدر الدين في مدرسته ألا يلي بها أحد من العجم وظيفة من الوظائف ٠ فقال في كل وظيفة منها : ويكون العرب دون العجم » ، وكذلك (المدرسة الخروبية) التي أنشأها عز الدين محمد الخروبي ـ ابن أخي بدر الدين ٠

٦ ـ الفيروز : بفتح الفاء وكسرها ٠ والفتح أشهر ، وفي كتب اللغة « الفيروزج » حجر من الاحجار الكريمة تعريب « بيروزه » الفارسية بالباء المفخمة P التي يقلبها العرب (فاء) في كل ما ينقلونه الى لغتهم ، كما يقلبون حرف V باء ٠ أسقطت العامة جيمها وقالت: « الفيروز » والنسبة الى « الفيروزج » في كتب اللغة « فيروزي » وبذلك يكون رجال اللغة قد وافقوا العامة بعض الموافقة ، وما ضر لو جاروها فحذفوا الجيم حذفا مطلقا ٠

هذه كلمة أردت بها أن ألفت النظر الى أن ليس كل ما تستعمله العامة خطأ ٠ وانه اذا كان يراد للفصحى ـ ونقولها مرة ثانية ـ أن لا تهبط الى منخفض العامية، فليس من الخير للعربية أن يكون بين اللغتين ـ وهما في الاصل لغة واحدة ـ حاجز حصين يحول دون الخاصة واستعمال لفظ لا بد منه ، لا لشيء ، الا لان العامية استعملته أو استحدثته ٠

ان اللغة لا تعيش في أخبية ضرب عليها بالاسداد ، ولكنها كائن حي تسير مع الزمن الذي تعيش فيه ، يحدث لها فتحدث له، وهي الكلمة المأثورة عن عمر بن عبدالعزيز التي خاطب بها أمته وقد استشهدنا بها من قبل : « تحدثون فنحدث لكم » وما قيل في الشريعة يقال في اللغة٠

وبعد ٠ فانا نريد خطة وسطا ، لا تشدد الحريري في (درته) (٦) منع فيها ما يجوز ، ولا تساهل ابن الحلبي في (بحره) (٧) أجاز فيه مالا يجوز ٠

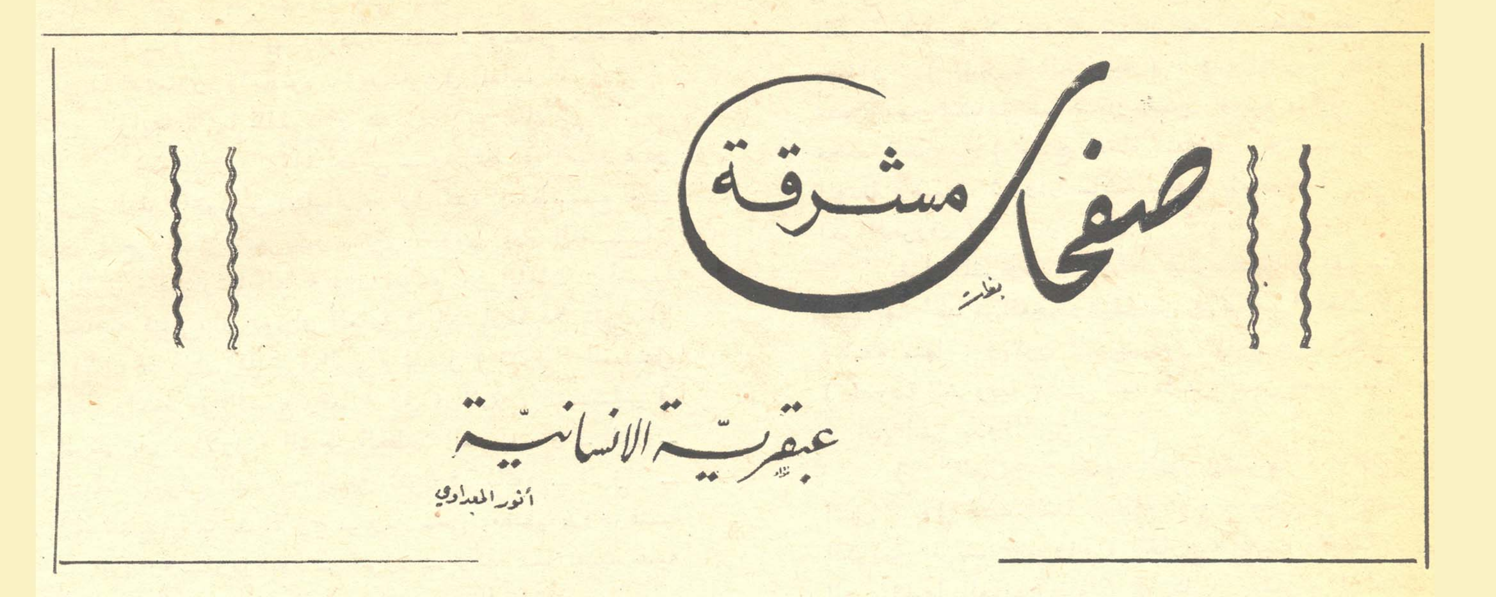
عارف النكدي

---

(٦) (درة الغواص في أوهام الخواص) ٠

(٧) (بحر العوام في ما أصاب فيه العوام) ٠

وقد بلغ التشدد منبعضهم ان أنكر على بعض الادباء قولهم « ليلة راقصة » معللا لانكاره بقوله : « ان الليلة يقع فيها الرقص وليس هي التي ترقص » وكان المنتقد وهو علم من أعلام اللغة غلبت عليه نزعة التشدد فذهب عن باله أنهم قالوا : « ليلة ساهرة » و « ليلة قاصدة » و « ليل نائم » و « يوم عاصف » وقوله تعالى : « عيشة راضية » وكلها مما يقع الشيء فيه ، لا مما يقوم هو فيه ٠



انسان عظيم ... وذلك أصدق ما يقال فيه وغاية ما يقال .

محمد الرسول في مواقف الرسالة ، ومحمد البطل في مواقف البطولة ، ومحمد الصديق في مواقف الصداقة ، ومحمد الوالد في مواقف الابوة ، ومحمد في كل موقف من مواقف العبقرية يحتل من نفسي مكانا لا يدانيه مكان ... ولكن جانبا من جوانب هذا العظيم الذي يعلو أبدا فوق مستوى الاقران والنظراء ، يهزني هزا عنيفا كلما تمثلته في طوايا الخاطر أو بعثته من ثنايا الشعور ، ذلك هو محمد الانسان !

قد ينظر غيري الى الجانب الانساني في حياة الرسول من خلال المنظار الذي ألفه الناس ، حين يتخيلون الانسانية مجموعة فضائل تجوز أن يشترك فيها العظيم وغير العظيم ... هذا المنظار الذي ينظر من خلاله الى انسانية محمد ممثلة في الرحمة والمودة والالفة والايثار والعطف ، لا يهيىء لصاحبه أن يضع يده على مفتاح هذه الشخصية الفذة في حقيقتها البعيدة ، هناك في أعمق الاعماق وأبعد الاغوار .

انسانية محمد لا توزن في رأيي بذلك الميزان الذي يقام لكل رجل يمكن أن تجتمع فيه تلك الصفات ، لنضع بعد ذلك في مواجهة اسمه كلمة « انسان » ... وانما توزن الانسانية في هذا العظيم بميزان اللحظة النادرة من لحظات حياته ، حين يقف وحده متفردا في مجال يعز فيه التفرد على كل شبيه وكل نظير . وما أكثر اللحظات النادرة في حياة محمد الانسان !

أريد أن أنظر الى عبقرية الانسانية في شخصية الرسول من خلال منظار آخر ، منظار يحدد الزوايا التي تفترق في المشهد الانساني عن نظائرها فيما تعارف عليه الناس ...

اذا قلنا أن محمدا انسان لانه رحيم فما أكثر الرحماء ، واذا قلنا انه انسان لانه وفي فما أكثر الاوفياء ، وقل مثل ذلك في سماحة الطبع والمودة والالفة والايثار والعطف ، فما أكثر ما كان يملك أصحابه من كل هذه الفضائل والسمات ... ولكن محمدا كان يفترق عنهم جميعا في هذا المجال ، مجال المفاضلة بين « الانسان » في صفاته العليا التي تقررها موازين القيم والاوضاع ، وبين « الانسان العظيم » في صفاته المثلى التي تعجز عن تقريرها موازين القيم والاوضاع !

محمد الانسان النادر لا يوزن الا بميزان يبحث عن الندرة الخلقية التي تضعه وحده في كفة ، وتضع في الكفة الاخرى ما شاء لها أن تضع من الناس ٠٠٠ ولن يتهيأ للباحثين أن ينفذوا الى أغوار حقيقته الانسانية ، الا اذا وقفوا طويلا أمام تلك المشاهد التي تعرض لهم نماذج من حياة ذلك القلب العظيم ، نماذج لا تتعدد منها الصور ولا تتكرر الالوان ٠

سأنظر اذن الى محمد الانسان على ضوء اللحظة النادرة من لحظات حياته ، تلك التي قلت عنها انه يقف فيها متفردا حين يعز التفرد على كل شبيه وكل نظير ٠ لحظات « الضعف الانساني » في حياة الرسول هي وحدها دون غيرها التي تهدي السالكين الى معالم الطريق ، طريق الوصول الى حقيقته الانسانية ٠٠٠٠ وانه لضعف الاقوياء والقادرين حين يشرفون على الدنيا من أعلى قمة من قمم الاخلاق ، ليخفضوا للناس جناح الضعف من الرحمة ٠

هذا « الضعف الانساني » في حياة محمد ناتج من كونه انسانا عظيما قبل أن يكون نبيا عظيما يحمل مشعل الهداية الى جيل من بعده أجيال ٠٠٠ ان الرحمة في موضعها أمر لا غرابة فيه ، ولكن الرحمة في غير موضعها أمر تكتنفه الغرابة من كل نواحيه ٠ وهكذا كان محمد : فهو في موقف الرحمة حيث تطلب الرحمة « رجل عظيم » ، ولكنه في موقف الرحمة حيث لا ينتظرها أحد « انسان عظيم » ٠ وهذه اللحظة النادرة التي لا يشاركه فيها أحد من الناس ، لحظة « الضعف الانساني » المنبعث من غلبة الانسانية على طبيعته ، وتغلغلها في كل خليقة من خلائقه ! وهي التي يسميها الباحثون رحمة دون أن يفرقوا بينها وبين الرحمة التي يقدم عليها غير العظيم أو يقدم عليها العظيم **وهو غير انسان ٠**

يقول الاستاذ العقاد في معرض الحديث عن انسانية محمد : « النبي لا يكون رجلا عظيما وكفى ٠ بل لا بد أن يكون انسانا عظيما فيه كل خصائص الانسانية الشاملة التي تعم الرجولة والانوثة والاقوياء والضعفاء ، وتهيؤه للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم ٠ فيكون عارفا بها وان لم يكن متصفا بها ، قادرا على علاجها وان لم يكن معرضا لادوائها ، شاملا لها بعطفه وان كان ينكرها بفكره وروحه ، لانه أكبر من أن يلقاها لقاء الانداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الارض والسماء ، لانه يملك مثلها آفاقا كآفاقها ، هي آفاق الروح » ٠

هذه الكلمات التي يسوقها الاستاذ العقاد عن محمد الانسان تنطبق كل الانطباق على « الرجل العظيم » لا على « الانسان العظيم » ٠٠٠ لان الرجل الذي يشمل الناس بعطفه ، ثم يفسر هذا العطف على أنه أكبر من أن يلقى الامور لقاء الانداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، هذا الرجل اذا وضع في الميزان صاحب طبيعة خلقية تنبع فيها الرحمة من منابع العظمة النفسية ، تلك التي تنظر الى كل شيء نظرة القمم الى السفوح أو نظرة الكبير الى الصغير ٠٠٠ وفرق بين رحمة يفرضها على صاحبها التعاظم والكبرياء ، ورحمة يفرضها التواضع الموصول الروابط بالانسانية في أوسع آفاقها وأرفع مزاياها ٠

أما قول الاستاذ العقاد بأن محمدا لا بد أن يكون انسانا عظيما لانه نبي عظيم ، فهو في رأيي لا يثبت ولا يؤكد انسانية محمد في كثير ولا قليل ، لان محمدا كان انسانا عظيما بأدق معاني الكلمة قبل أن يبعث رسولا الى الناس ، والدليل على ذلك من تاريخ حياته مهيأ ميسور لكل من يلتمس الدليل ٠٠ وذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال !

بعد هذا نعود الى المجال الذي يجب أن يبحث في رحابه عن محمد الانسان ، مجال اللحظة النادرة من لحظات « الضعف الانساني » في حياته ! هناك حيث تبدو الرحمة في غير موضعها لترفع الغطاء عن حقيقة هذا الانسان العظيم :

مات عبد الله بن أبي ، زعيم المنافقين في عهد الرسول ، ورأس الفتنة التي كانت تنشر سمومها في صفوف المسلمين ، عبد الله بن أبي الذي لم يسلم محمد من كيده وشره ولسانه ، عبد الله ابن أبي الذي نزل فيه وفيمن على شاكلته حكم السماء : (استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ٠٠٠

مات هذا المنافق فصلى عليه محمد بعد موته ، ثم تخلى لاهله عن قميصه ليكفنوه فيه ! ثم يقول لعمر حين يعتب عليه عتابا بلغ حد التعنيف والانكار : « أخر عني يا عمر ، لو أعلم أني ان زدت على السبعين غفر له زدت » !٠٠٠ ثم يقول لمن يسأله لم دفعت اليه بقميصك وهو كافر : « ان قميصي لن يغني عنه من الله شيئا ، وانني أؤمل من الله أن يدخل في الاسلام كثيرا بهذا السبب » !٠٠٠ ولم يلبث محمد الا قليلا حتى سمع رأي السماء : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » !٠

هذا هو محمد الانسان متفردا في مجاله ، متوحدا في فضائله وأعماله ··· لقد كان قادرا على قتل عبد الله بن أبي ولكنه لم يفعل ، وكان قادرا على أن يشيعه باللعنات ولكنه لم يفعل ، لانه انسان ··· انسان يتسع قلبه للدنيا بما فيها : من خير وشر ، من فضيلة ورذيلة ، من ايمان ونفاق ، من وفاء وتنكر للوفاء · ويتسع للدنيا بمن فيها : سواء أكان فيها عمر بن الخطاب ، أم عبد الله بن أبي ، أكان فيها علي زوج ابنته فاطمة ، أم هبار بن الاسود قاتل ابنته زينب !···

هذه هي اللحظة التي تتجلى فيها الندرة في الطبيعة الخلقية ، « لحظة الضعف الانساني » الذي يدفع الرسول الكريم الى لون فذ من الصفح والرحمة ، هناك حيث يأتي الصفح والرحمة على غير ترقب وانتظار ··· ان الرحمة كما سبق أن قلت حين تأتي في موضعها تكون سمة من سمات « الرجل العظيم » ، ولكنها حين تأتي في غير موضعها كما حدث هنا تكون سمة من سمات « الانسان العظيم » ، وفي هذا النطاق نجد محمدا ولا نجد سواه !

ويدفعنا ذكر هبار بن الاسود الى أن نورد هنا شيئا من قصته ، فيها لحظة أخرى من لحظات التفرد في عبقرية محمد الانسانية ··· كانت زينب بنت الرسول في طريقها من مكة الى المدينة ، تلبي دعاء الشوق الابوي المنبعث من قلب أبيها العظيم ، وكان برفقتها نفر من أهله وصحبه ليكونوا لها ملاذا من كيد الكائدين وعدوان المعتدين · ولكن قطاع الطريق ممن خرجوا على طاعة الرسول وكلمة السماء قد اعترضوا طريق القافلة المؤمنة والركب الآمن ، لتتندى رمال الصحراء بعد قليل بأطهر دم سال على رمال الصحراء ، لقد كان دم زينب أراقته رمية رمح من يد الجارم الآثم هبار بن الاسود ، وحين يبلغ الامر محمدا الوالد يتلقاه كما يتلقى الآباء مصارع الابناء ، بالحزن العميق والاسى الدفين ، واللوعة التي تهز في القلب الكبير مكامن الالم والعذاب !··· ويهدر محمد الزعيم دم هبار بأي مكان وجد ، وبأي بلد نزل ، وبأي حي من أحياء العرب أو العجم حل متخفيا أو سافرا بغير قناع ·

وينطلق أصحاب محمد في اثر ابن الاسود لا يتركون فجا من فجاج الصحراء ولا بقعة من بقاع الارض، ولكنهم يعودون صفر الايدي من ذلك المعتدي الاثيم ··· ويعود الوالد المفجوج الى حزنه وأساه !

وفي يوم من الايام التي لا تنسى في حياة الرسول يقتحم مجلسه رجل يخفي وجهه تحت لثامه ، رجل لايملك عينيه من الدمع ، ولا قلبه من الوجل ، ولا لسانه من طلب الصفح والمغفرة · وينظر الانسان العظيم الى هذا الذي يستجير به · ويفزع اليه فيجده قاتل ابنته هبار ابن الاسود ، يدفع اليه برمحه ليصنع به ما صنع بزينب جزاء ما اقترفت يداه !··· وهنا يختفي محمد الوالد المفجوع في أعز ما يملك من دنياه ، ولا يبقى الا محمد « الانسان العظيم » في أكرم ذروة من ذرى « الضعف الانساني » ، هناك حيث يخفض لهبار جناح الضعف من الرحمة ··· وهناك حيث يخرج هبار وقد غفر له ··· وهناك حيث يقف محمد متفردا في مجال الندرة الخلقية حين يعز التفرد على كل شبيه وكل نظير !

ولحظة ثالثة وما أكثرها من لحظات ··· لحظة قد يمر بها العجالى فلا يقفون أمامها طويلا ليتأملوها تأمل المغرقين في البحث عن جوهر النفوس ومعدن القلوب ، حين يصهرها وهج الرحمة في بوتقة « الضعف الانساني» ضعف الاقوياء والقادرين !

طفل يموت ··· وما أكثر ما يموت الاطفال وغير الاطفال فيتجلد الآباء أمام شبح الموت ووقع المصيبة ، لا يترقرق في مآقيهم دمع ، ولا يعصف بقلوبهم حزن ، ولا يذهب بصبرهم وقدة شعور ملتاع · وقد يكون المفجوعون أناسا لا حظ لهم من مقارعة الخطوب ولقاء الشدائد ومغالبة الاهوال ! ولكن موت ابراهيم يهز في نفس محمد كوامن الشجن ، ويهز في عيني محمد عصي الدموع ، محمد الذي لم تهزه الدنيا بكل ما ادخرته له من محن يرفض منها الصبر وتخور معها العزيمة ، محمد الذي توكأت على كتفيه عوادي الزمن يسير وراء ابراهيم متوكئا على كتفي عبد الرحمن بن عوف ! ومعذور بن عوف حين يستكثر البكاء على الرسول وينكر البكاء على الرسول ، لقد كان ينظر الى « الرجل العظيم » الذي بكى ، ناسيا أن الذي بكى هو « الانسان العظيم » !··· ومعذور بن عوف اذا نظر الى محمد فوجده يبكي على غير ترقب وانتظار ، لقد كان عهده به جلدا أمام المصائب ، قهارا للخطوب ! ولكنه نسي لحظات « **الضعف الانساني**» التي تكشف عن صدق الانسانية حين تنتفض من جيشان العاطفة أمام أصعب الامور وأيسر الامور ·

لحظات « **الضعف الانساني** » هي وحدها الميزان الذي توزن به انسانية محمد دون غيرها من الموازين ، وتوزن به انسانية محمد دون غيره من الناس ··· وهي هنا لحظات ثلاث ، وانها لقليل من كثير ، وما أكثرها على قلتها في حساب الشعور والوجدان ·

فلسفة الحياة عند الخيام

فاضل عباس الحلو

عمر الخيام هو أبو الفتح ـ أو أبو حفص ـ غياث الدين عمر بن ابراهيم الخيام ولد في عام ٤٣٣ هـ أو ٤١٢ هـ في نيسابور(١) فهو على هذا فارسي المولد ٠

والمعلوم أن قليلا من المراجع العربية من كتب التراث قد سردت تاريخ حياته أو أشارت اليه بما يستحقه فلقد ذكره ابن خلدون في مقدمته وأشار اليه حاجي خليفة في كشف الظنون والرحالة المكي في نزهة الجليس على أن مراجع فارسية عديدة قد تناولته باعتباره ابن جلدتهم ـ على ما يعتقد ـ وقد أشار اليها الشاعر المصري أحمد رامي في مقدمة ترجمته للرباعيات فضلا عن المراجع الغربية وخصوصا الالماني والفرنسي منها ٠

عاش الخيام في نيسابور معظم حياته ونيسابور من أمهات المدن الاسلامية انذاك فلقد كانت عاصمة خراسان(٢) وهي مدينة واسعة عظيمة في سهولها التي تكتنفها الجبال العالية وفي بساتينها النضرة وكانت مجمع العلماء وفيها ست مدارس فهو بهذا نشأ في بيئة ثقافية كان لها أكبر الاثر في لمعان نجمه في دنيا الادب والعلم(٣)٠ وقد تتلمذ في صغره وتربى على يد معلمه الامام الموفق وكان هذا صوفيا في ارائه مما كان له اثره في حياة الخيام(٤) وخاصة في شعره الذي اتسم بالغموض والاستفهام أحيانا٠ وقد جاب عدة مدن طلبا للعلم نذكر منها بلخ ومرو كما انه نزل بغداد واجتمع بعلمائها وهبط أصفهان وبخارى ٠

وفلسفة الحياة عند الخيام تتضح من خلال رباعياته التي هي أشهر اثاره والمعروف أن هناك اختلافا بين من تناول دراسة الخيام وعقيدته ونظرته للحياة فهناك من ذهب الى كونه متعبدا صوفيا اذ كانت سيرته سيرة الرجل الناسك الزاهد(٥) ، وقال اخرون انه كان عاشقا حذرا وذهب فريق ثالث الى اعتباره فاسقا وعربيدا مشككا والمهم في الامر أن تساؤلات عدة قد تتبادر الى ذهن القارىء لرباعيات الخيام لما يكتنف بعضها من غموض ومن متناقضات رغم كون القسم الاكبر منها يترجم فلسفته للحياة التي تقوم على أساس ضرورة اسراع الفرد الى الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها قبل أن يقتطفه الموت وتلفه يد القدر ٠

الخيام عاش محبا للحياة وقد تقلب في أوساط العلماء ودرس الالهيات والفلسفة والمنطق اضافة للعلوم الصرفة كالرياضيات والطب والفلك ولقد أشار أحمد رامي الى ائتناس العظماء والعلماء الى عشرته ولكن البهائي وصفه في كشكوله بسوء الخلق وطول الكلام(٦) ٠

وحب الخيام للحياة ولمباهجها وملذاتها يتضح من خلال رباعياته فلقد بكى على قصر الحياة لان الايام تمر فيها مر السحاب ولا تعود فقال :

تــروح أيامي ولا تغتـدي
كمـا تهب الريـح في الفدفد

لهذا يدعو الى الائتناس بها والارتشـاف من عبير ملذاتها فيقول :

وانما بالمـوت كـل رهين
فاطرب فما أنـت من الخالدين
واشرب ولا تحمـل أسى فادحا
وخـل حمـل الهـم للاحقين

ولقد أكثر من تناوله للخمرة التي لا طيب بغيرها في هذه الحياة :

لا طيب في الدنيـا بغير الشراب
ولا شجى فيهـا بغير الرباب
فكرت في أحوالهـا لم أجد
أمتع فيهـا من لقـاء الصحاب

وهكذا يرى الحياة انه يدعـو الى ترك آلامهـا ومآسيها ويدعو الى التمتع بلمذاتها ذلك لان مثوانا هـو التراب فمنه خلقنا واليه نرجع لهذا اغتنم من الحيـاة فرصها ومسراتها الحلوة ، لا تهتم بالامس الزائل ولا بالغد الغامض ، نادم الكأس في مجلس الحبيب على نغم الناي ولا تكثرت لما يقوله لك المعقدون :ـ

ثـلاثة هن أحـب المنى
كأس وأنغـام ووجـه صبيح

واقرأ هذه الرباعية :

تفتح النـوار حـب المـدام
واخلع ثياب الزهـد بين الانام
وهاتها من قبـل سـطو الردى
في مجلس ضم الطلى والغـرام

واذا كانت فلسفة الحياة عنده تنصب عـلى ضرورة اسراع الفرد الى الاستمتاع بملذات الحياة قبل أن تقتطفه يد القدر دون الاكتراث الى أقوال القائمين والقـاعدين من المتزمتين :

فكرت في الدين أقـوام كمـا
حار بين الشك والقطـع فريق
فاذا الهاتف يدعـوهم أيا
بله لا هـذا ولا ذاك الطريق

وقوله :

خير لي العشق كأس المدام
من ادعـاء الزهد والاحتشـام
لو كانت النار لمثـلي خلت
جنات عدن من جميـع الانـام

فما هو سر قوله اذن :

معاقرو الكأس وهم سـادرون
وقائمو الليـل وهم سـاجدون
غرقى حيارى في بحـار النهى
والله صاح والورى غافلون

على أنه يقول في رباعية أخرى :

للصوم والصلوات نلت تنسـكا
فتيقنت نفسي غـدا بنجاحي
أسفا فقد نقض الوضوء بنسمة
والصوم زال بنصف جرعة راح

فما هو مغزى قوله :

لم أشرب الخمر ابتغاء الطـرب
ولا دعتـني قـلة في الادب
لكن احساسي نزاعـا الى
اطـلاق نفسي كان كل السبب

ثم نراه يقول :

دنياك ساعات سـراع الزوال
وانما العقبى خلود المـآل
فهل تبيـع الخلد يا غافـلا
وتشتري دنيـا المنى والضلال

ويقول أيضا :

يا من نسيت النار يوم الحسـاب
وعفـت ان تشـرب ماء المتاب
أخاف ان هبـت رياح الردى
عليـك أن يانف منك التراب

فالتناقض واضح من خلال ما أوردناه من الرباعيات في نظرته للحياة فتارة يقول : اشرب انتنس انطلق واترك دعوة المعقدين ثم يقول بأن الشارب والساجد سواسية فهم

غرقى حيارى غافلون ثم أخيرا يناقض نفسه فيقول بأن علة تعشقه للخمرة ليس هو ابتغاء الطرب والانس ولا خروجا على الاداب والمثل العليا بل مرده هو رغبته في اطلاق النفس لا خراجها من واقعها ٠

بعد أن أوضح فناء دنيانا التي نعيشها وان العقبى هو اليوم الاخر فلا عليك الا اجتناب المعاصي اذ قد يأنف منك التراب الذي تدفن فيه بسبب تثقلك بالمعاصي ولكنه يعود فيسبغ على نفسه غموضا كما يتضح من خلال البيت التالي ٠٠

ليتك يا ربي تبيد الوجود
وتخلق الاكوان خلقا جديد

وهنا يكمن السر في حيرة من تناول الخيام بالبحث أمؤمن كان أم متشككا أو صوفيا حكيما كان أم عاشقا أم علمانيا ؟

هناك من يرى أن رباعيات الخيام كانت عرضة لعبث يهودي مقصود وعلى هذا فان ما تخللها من أفكار علمانية أو تشككية هي من وضع ذلك اليهودي وهناك من ذهب الى أن فهم الخيام لمعنى الحياة كان وفقا لعقيدة المدنية الحاضرة ففلسفته للحياة تأتي على غرار ما تذهب اليه المدنية الحاضرة واعتقادي هو أن للخيام شخصية مزدوجة احداهما عند الصحو وفيها يؤمن بالله ويطلب منه الرحمة والغفران لما اقترفه من آثام ٠٠

ان لم أكن أخلصت في طاعتك
فانني أطمع في رحمتك (٨)
وانما يشفع لي انني
قد عشت لا أشرك في وحدتك

أما الثانية فهي عندما يكون ثملا وهنا تراه يقول مالا يتقبله الدين فضلا عما يقوله من التناقضات ومن الدعوة الى العبث والمجون والانطلاق في دنيا الاحلام والالتذاذ بما طاب من الحياة وارتشاف عبيرها الرطيب غير مقيد بدين أو بخلق فهو هنا اذن فاسق عربيد وهذا ما يرجحه العلامة الفرنسي موريس شابلان (٧) بعد أن تساءل عما اذا كان مشككا فاسقا أم عاشقا حذرا أو متعبدا صوفيا ٠

وانه لمحل نظر القول بأن (عمر الخيام لم يعن بالخمرة هذه المادة المفسدة للعقول وللاخلاق والارواح والابدان بل أراد خمرا أخرى تطلبها من بعده ابن الفارض نفسه فلم يذقها) (٩) ٠

ويقال بأنه في أواخر أيامه تاب الى الله توبة نصوحا وحج بيته الحرام حيث عاش الخيام ١١٣ سنة ٠

من كل ذلك ندرك بأن الخيام رجل خمرة وانس وطرب فلسف الحياة على أساس وجوب اسراع الفرد الى التمتع بملذاتها قبل أن يأتيه أجله وقد اكتنفت بعض ارائه بالغموض والتناقضات لعل مردها الاول هو الخمرة لما لعبته في عقله رغم تبحره في العلوم ووقد ذكائه ٠

---

١ ـ أحمد رامي ، الدكتور محمد عزت نصر الله في مقدمته لترجمة احمد الصافي النجفي للرباعيات ٠
٢ ـ البلدان لليعقوبي ص ٤٢ ، ونزهة الجليس ج١ ص ٣٩٧
٣ ـ يراجع الهامش رقم ١ ٠
٤ ـ مجلة العلوم اللبنانية / العدد الاول ـ السنة الثالثة ـ كانون ثاني ١٩٥٨ ٠
٥ ـ مجلة اليقين البغدادية / السنة الاولى ج ١٧ و ١٨ ـ شباط ١٩٢٣ ٠
٦ ـ راجع أحمد رامي في مقدمته لترجمة الرباعيات طبع مصر عام ٦٩ وكشكول البهائي في جزئه الثاني طبع عام ١٩٧٢ في النجف ٠ وكذا عباس القمي / الكنى والالقاب ج٢ ط ١٩٧٠ ٠
٧ ـ انظر مجلة المكتبة ـ اصدار مكتبة المثنى ـ العدد ٧١ السنة العاشرة اذار ١٩٧١ ٠
٨ ـ الابيات من ترجمة احمد رامي ٠
٩ ـ مجلة اليقين ـ سبق واشير اليها ٠

مستقبل اللغة العربية

د. فتحي احمد عامر

تمثل اللغة العربية أقوى الدعائم في قوميتنا التي نبذل في سبيلها كل جهد، ونسعى اليها ما وسعنا السعي وننادي لتحقيقها وتثبيتها بجهوري النداء ٠

كل ذلك نصنعه، وأكثر من ذلك نصنعه في سبيل القومية العربية، التي هي أثر ضروري من آثار التاريخ العربي، وقيمة لا بد منها لاصالتنا ووجودنا المشترك على هذه الارض التي نتنفس أنفاسها، وننعم بعبيرها ٠

واذا كان الامر كذلك فاللغة العربية من هذا المنطلق تراث الخلود للعرب، أو خلود التراث لهم، عليهم أن يحوطوها بكل الضمانات الممكنة رسميا وشعبيا حتى لا تتزلزل قدماها في مهب الريح العاتية لآلاف اللهجات التي تهب عليها في كل قطر عربي ٠

وسوف تعجب ـ أيها القارىء ـ كما أعجب، وكما عجب قبلنا كثير من أهل اللغة الذين عصف بهم الكمد والحسرة، وهم يواجهون هذا التناقض الواضح بين دعوتنا الملحة لجمع الشمل العربي، وحفظ الكيان العربي، ووقوفنا موقف المتفرج، واللغة العربية تترنح في الشفاه العربية، وفي الجامعات العربية، وفي الدواوين العربية، وما الى ذلك ٠

ان هذه الظاهرة خطيرة للغاية، أكون منصفا لو قررت: أنني شاهدتها بنفسي وعانيتها معاناة المحب للقومية واللغة على السواء: في ثلاثة أقطار عربية، هي مصر والجزائر والسودان ٠

ومن هذه المعايشة، وتلك المعاناة، في ثلاثة أقطار عربية، تجيء كلماتي من ذوب القلب، وعصير المشاعر، حول مستقبل اللغة العربية، وليس هذا من باب التشاؤم، أو اغلاق الباب في وجه الاصلاح، فالتحذير من الخطر كثيرا ما يبعد عنه، والتنبيه الى أثر ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو اللغوية، كثيرا ما يلفت الانظار والعقول اليها، لتوضع موضع المراقبة والملاحظة، أو موضع الحسم والعلاج ٠

ففي مصر نرى رجال اللغة العربية لا يرقون في وزارة التربية والتعليم الى المناصب القيادية العليا الا في النزر اليسير، بينما نرى المعلمين من غير هؤلاء الرجال على اختلاف طوائفهم وتخصصاتهم يصلون الى هذه المناصب راضين مغتبطين، لم يعكر صفوهم شيء، ولم يضيق من نطاق أمالهم ضيق ٠ وكأن رجال اللغة العربية لا يصلحون على الاطلاق لشغل منصب وكيل الوزارة أو منصب المدير العام، وكأن الله خلقهم، ليقصروا حياتهم على أن يعلموا النشيء في المدارس، لا يرقون، الا الى وظائف الموجهين والنظار في بعض الاحايين، وما فوق ذلك هم بعيدون عنه كل البعد، بينما نرى غيرهم منه جد قريب، والامثلة النادرة التي ترد على هذه القضية لا تبطلها على الاطلاق ٠

وتلك ظاهرة يصدم بها الشباب الطامحون ممن يختلفون الى اللغة العربية، ويولعون بها، يجدون آمالهم مسدودة، ودرجاتهم محدودة، وطموحهم قد وقفت به الغايات في وزارة التربية والتعليم، فينصرفون الى دراسة أخرى تنفتح دونها المغاليق، وتتحقق المطامح والامال ٠

ولست أدري سببا لهذا الاختلاف في المعاملة بين رجال اللغة العربية، وغيرهم من معلمي الدراسات الاخرى؟ واذا كان هناك قصور في الاولين، فالقصور ذاته في الاخرين، وتلك سمة من سمات التعليم في مصر، ضعف ظاهر في الخريجين، على اختلاف ثقافاتهم وتخصصاتهم ٠

واذا انتقلنا الى ظاهرة أخرى جديرة بالنظر والبحث، فاننا نجد هذه الظاهرة متمثلة في ضعف الطلاب الظاهر، واقبالهم على دراسة اللغة العربية عن غير رغبة ٠

فطلاب الازهر ينصرف المتفوقون منهم الى كليات الازهر العملية، ولا يجد الطلاب العاديون، أو المقبولون غير الكليات النظرية، فيسلمون أنفسهم اليها كارهين ولا

يستطيعون أن يقنعوا أنفسهم بقيمة هذا اللون من الدراسات فيتولد الصراع في نفوسهم ، ويقوى ويشتد ، ويضيقون بظروفهم وحياتهم ، وتنشأ في داخل كل منهم ألوان من العقد تكثر أو تقل .

ومن ثم فهم منصرفون تلقائيا عن دراسة العلوم العربية والاسلامية ، يتعلمونها لينجحوا ، لا ليغذوا عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم ، ويختلفون اليها ، ليحصلوا على اجازات جامعية تفتح لهم طريق لقمة العيش ، أو طريق الوظيفة ، والاندماج في سلك الموظفين .

ومهما بالغ الاساتذة في الاخلاص ، وتفننوا في جذب الطلاب اليهم في قاعات الدرس فلن يجدوا من الطلاب آذانا صاغية ، ولن تتفتح الصدور الموصدة لما يقولون ، ولن يجد الاساتذة بدا من التسهيل والتذليل ، واستبدال المراجع بالمذكرات والاستغناء عن الكتب الكثيرة بالكتاب الواحد ، الذي يحذف نصفه أو يزيد عندما يحين الامتحان .

وشبيه بهذا الامر ما وصلت اليه كلية « دار العلوم » التي كانت تعنى عناية شديدة باختيار الطلاب ، فلا تفتح صدرها الا للنابهين والمتفوقين من طلاب الازهر بادىء ذي بدء ، ثم من طلاب وزارة التربية والتعليم منذ سنة ألف وتسعمائة واثنتين وخمسين ، وكانت كلية دار العلوم تتأنى في الاختيار وتعقد المسابقات التحريرية والشفوية ، وتبذل الجهود المضنية الطويلة في الوصول الى أحسن الطاقات ، وخير الملكات اللغوية والادبية .

ومن هذا المنطلق استطاعت أن تخرج طبقة عالية المستوى ، على حظ وافر من الثقافة العربية الاصيلة ، تحسن أحسن الابداع ، وتعطي أعظم العطاء ، في مواقف التدريس ولكن الحال قد اختلف اختلافا شديدا ، فأصبحت كلية دار العلوم تستقبل أفواجا أفواجا من غير الراغبين ، الذين يحصلون في الثانوية العامة على أقل الدرجات ، والذين لا يجدون طريقا اخر يرغبون فيه ، فيسلمون أمرهم لله ويتوافدون على دار العلوم ، وهم يجهلون رسالتها ، أو بعبارة أخرى لا يقتنعون بما فيها من زاد .

ويحاول أساتذة دار العلوم – شكر الله لهم – أن يبسطوا أفكارهم وعلومهم وأن يقتربوا – جاهدين – من نفوس طلابهم وان ينشروا بين أيديهم أدلة الاقناع ، ليقتنعوا ، ولكنهم ما يستجيبون ، ويأخذون طريقهم بعد ذلك الى مدارس التربية والتعليم معلمين للغة العربية ، في مستوى ضعيف ويقل الاقبال على أقسام اللغة العربية في كليات الاداب ، بينما يتزاحم الطلاب تزاحما شديدا على أبواب الاقسام الاخرى .

ولست أدري سببا لذلك كله الا مستقبل الخريج الذي يتخصص في اللغة العربية وتقعد به المطامح والامال عن الوصول الى ما يريد ، فيختار الموصل الجيد ويعزف عن الموصل الردىء ، جهد ما يقنع به نفسه ، ويقتنع به عن طريق الاخرين .

وليس هناك من حل لهذه المشكلة المعقدة التي تهدر قيمة اللغة ، وتطيح بأعظم مقوم للقومية العربية الا أن يعيد المسؤولون النظر في نظام التعليم بوجه عام .

★ ★ ★

وفي الجزائر عشت عامين متواصلين أباشر تدريس اللغة العربية ، فيما بين عامي ألف وتسعمائة وسبعة وستين وألف وتسعمائة وتسعة وستين ، فكان الاقبال منقطع النظير من الطلاب ، وكان الطلاب في شغف زائد للغة العربية ، والادب العربي وكان المسؤولون عن هذه اللغة من أعظم القيادات في الثورة الجزائرية نفسها وهم يأخذون أنفسهم بهذه اللغة ، ويعملون ليلهم ونهارهم من أجلها ، فالصغار يختلفون الى تعلم اللغة العربية الجزء الاكبر من النهار ، والكبار يختلفون الى تعلمها شطرا من الليل راغبين طائعين، غير ضائعين ، ولا كارهين .

فلا تقل : انه الاستعمار الذي كان يضيق الخناق على اللغة ورجالها ، ويقف عائقا دون تعلمها، وبزوال الاستعمار زال هذا الكابوس الذي كان يضيق الخناق على اللغة ورجالها ، ويقف عائقا دون تعلمها ، وبزوال الاستعمار زال هذا الكابوس الذي كان يضيق الخناق ويمثل العائق ، فأقبل الجزائريون الى لغتهم الاصيلة يعبونها عبا ، ويرتشفون منها رحيق الشهد ، وشهد الرحيق .

فهذا العائق ذاته كان موجودا في غير الجزائر ، ولم نجد اقبالا كهذا الاقبال ولا فتونا باللغة كهذا الفتون ، ولا سهرا من المسؤولين على شؤون اللغة كهذا السهر ، حتى انك قد تعجب اذا ذكرت لك صادقا أمينا قصة أحد المسؤولين الكبار الذي لا أعرف اسمه ، ولكني أتذكر مواقفه جيدا وكيف كان حريصا أبلغ الحرص على أن يختار أكفأ المعلمين للغة العربية من المعارين لتدريسها ، وكيف كان يلغي عقود من لم تتوافر فيهم المقدرة اللغوية ، أو الكفاءة التربوية .

بينما تراه في الوقت ذاته ، يكرم الممتازين من المعلمين ، ويفيض في الثناء عليهم ويقضي لهم ما يشاءون من مطالب وغايات .

وتستطيع أن تستشف مقدار ما تجده اللغة العربية في الجزائر من اعزاز وتكريم على أرفع مستوى هناك ، اذا ذكرت لك أن مسؤولا كبيرا في وزارة التعليم الجزائرية قد انتقل بنفسه الى مكان بعيد عن العاصمة ، يقنع معلما ممتازا للغة العربية بالبقاء ، وكان المعلم الممتاز قد صمم على الرحيل ، لظروف اضطرته اضطرارا الى مغادرة الجزائر ، وحاول المسؤول الكبير أن يثني المعلم عن رغبته ، فلم يفلح أمام اصراره .

ولعلك تقتنع معي بأن هذه ظاهرة تدل دلالة أكيدة

على أن شعب الجزائر وقادتها مقتنعون تماما بقيمة هذه اللغة ، عاملون تماما على نشرها ، باذلون من الجهد أضعافا مضاعفة في سبيل أن تقوى وتزدهر ، وتأخذ مكانها اللائق بها على مستوى الشعب والحكومة .

★ ★ ★

وفي السودان التي شرفت بالعمل بها منذ ثلاثة أعوام مدرسا للبلاغة والنقد الادبي بكلية الاداب : فرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، أرى ظاهرة تستلفت النظر من طراز جديد ، لا يوجد مثله في مصر ، ولا يوجد مثله في الجزائر.

فرواد اللغة العربية قليلون ، والطلاب الذين يقبلون على التخصص في هذه المادة أندر من الماس والياقوت ، وهل تتصور أن عدد الطلاب بقسم اللغة العربية بكلية الاداب، فرع جامعة القاهرة بالخرطوم لا يتجاوز عشرين طالبا وطالبة ، بينما يوجد خمسة من أعضاء هيئة التدريس ، استاذان ، ومدرسان وأستاذ مساعد ؟ بله الاساتذة المنتدبين .

وهل تتصور أن ضعفي هذا العدد تقريبا أو أكثر قليلا يوجد في الجامعة الاسلامية بأم درمان ؟ ولست أدري!! والحال كذلك في الجامعة الاسلامية ، كم وصل العدد في جامعة الخرطوم ؟ واللغة العربية ليست تخصصا وحدها ، بل مضافا الى غيرها . انها ظاهرة تستحق الدراسة ، فمعين اللغة العربية في السودان يتعرض للنضوب واقبال الطلاب على دراسة هذه اللغة لا يكاد يذكر ازاء اقبالهم الشديد على التخصيصات الاخرى ، كالجغرافيا ، والاجتماع ، والفلسفة وما الى ذلك وحينما استطلعت بنفسي آراء مجموعات من هؤلاء الطلاب الذين يتوافدون على أقسام اللغة العربية في السودان حول ظاهرة انكماش هذه الاقسام ونضوبها وجدتهم يكادون يجمعون على أنهم يفتقدون المرجع الجيد الذي يكتب بلسان العصر ويبتعد بهم عن المماحكات والجدل اللفظيين ، ويربط لهم كل ما يتلقون من علم بأسلوب الحياة المتطورة المتجددة .

ومن خلال هذا الاستطلاع أصل الى عقدة من هذه العقد التي تفزع الطلاب وتجزعهم وهي الوقوف عند الكتب القديمة في بعض الدراسات الادبية بمفهومها العام ، كالنحو والبلاغة ، ولقد كتبت هذه العلوم بأسلوب علمي جدير بالانتباه اليه ، كتبها أساتذة متخصصون كما ينبغي أن تكتب وخلصوها مما شابها في القديم من منطق وفلسفة ، وأصبحت من المراجع العربية التي لا غنى عنها لاي باحث في هذا المجال وأذكر في هذا الصدد على سبيل المثال كتاب « النحو الوافي » للاستاذ الكبير عباس حسن ، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو موسوعة نحوية رائعة ، واضحة الاسلوب ، دقيقة التصنيف .

وكتاب « البيان العربي » للدكتور بدوي طبانة ، رئيس قسم البلاغة والنقد الادبي والادب المقارن بكلية دار العلوم ، وكتاب « قدامة بن جعفر والنقد الادبي » وكتاب « أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية » للمؤلف عينه ، وكلها كتب جليلة القدر ، عظيمة الفائدة تبعد الدارس عن أسلوب الالغاز ، وتصله بالبلاغة العربية في أحسن مجاليها وأعظم صورها ، وهناك طائفة كبيرة من هذه المؤلفات لاساتذة أجلاء فضلاء مثل كتاب « البلاغة تطور وتاريخ » للدكتور شوقي ضيف ، و « أثر القرآن في تطور النقد العربي » للدكتور زغلول سلام ، وكثير غيرها .

وبهذه الوسيلة المتطورة ، في تلك المؤلفات القديم موضوعها ، الجديد أسلوبها وتناولها ، يستطيع عشاق اللغة العربية ودارسوها أن يجدوا طلبتهم ، ويمتعوا نفوسهم بأعظم زاد ، وخير مدد ، في حقل من أخصب حقول المعرفة على الاطلاق والملاحظة الاخيرة التي تجيء في نهاية مقالتي تلك ، هي ما كان من أثر المهرجان القومي الاول للاداب والفنون ، الذي عقد بالخرطوم في الخامس من يناير الى الحادي عشر منه ، عام خمسة وسبعين وتسعماية وألف.

لقد كان المهرجان عامرا بالشعر المبدع ، سواء من شعراء مصر أو السودان ، ولعلنا نوفق الى دراسة هذا الشعر ونقده في محاولات تالية ، والشيء الجدير بالنظر هو أن رواد هذا المهرجان لم يكونوا يتجاوزون بضع مئات من المستمعين ، في الوقت الذي بذل فيه المسؤولون في السودان جهودا كبيرة في الاعلان عنه ، وتنسيقه وتشجيع المشتركين فيه ، وتكريمهم .

وكنت أرى الاديب الشاعر الاستاذ محمد أحمد محجوب يهتز على وقع النغم ، وتتراقص مشاعره لجاذبية الكلمات ، وكان يستمع جيدا بأذنيه ، وعينيه وعصاه وأصابعه .

فهل نتطلع الى مستقبل باسم للغة العربية والادب العربي ؟ هل نرى جهودا متواصلة من الشعب العربي ، والمسؤولين العرب ، وبخاصة في جامعة الدول العربية ، تعيد لهذه اللغة الجميلة وجه رشاقتها ، ورشاقة وجهها ؟

وهل ننظر لهذه اللغة نظرة جوهرية تليق بقيمتها في حياتنا المعاصرة التي نستلهم قوتنا ووحدتنا وتاريخنا من جلالها في القديم ، وتطورها وغناها وخصوبتها في الحديث؟ وهل نحس سيلا من الحماس الجارف في جامعاتنا ومعاهدنا ينعكس الى سلوك عملي للاخذ بيد هذه اللغة الخالدة ، لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، يرغب في دراستها ، ويقرب منها الشباب والمتعلمين والدارسين من طلاب البحث والمعرفة ، ويبعد عنها ما ينفر منها ، ويجعلها مغضنة الجبين مشوهة الملامح ، لتظهر أخيرا في جمال تقاطيعها ، وسحر جاذبيتها ؟؟




كفاني يا قلب

بشارة الخوري

كفاني يا قلب ما أحمل   أفي كل يوم هوى أول

أيخلق منك جديد الهوى   فؤادا من السكر لا يعقل

له عثرة الطفل حول السرير   ودمعته البكر اذ يعول ؟

أفي كل وجه لنا مرتع   وفي كل ثغر لنا منهل

كفى نهما ! لن يفر الجمال   وترحل أنت ولا يرحل …

عذرتك يا قلب ، من للهوى ؟   أنتركه بعدنا يذبل

سكتنا ، فما غرد العندليب   وتبنا ، فما صفق الجدول



الحلم الرهيب

حامد حسن

ألفجر في شفتيك يسكب عندمه ... والليل يغرق في عيونك أنجمه

وغفوت يا شبح الخطيئة في يدي ... والبدر يسكب فوق مضجعنا دمه

أللیل يملأ ناظري ، وفي يدى ... شبح يمص دمي ، ويرشفني فمه

نجواك ! همس ضمير أطهر تائب ... وأرق ما نفح الخيال ، ونمنمه

سلسلتها نغما على وتر الهوى ... وبعثتها بين النسائم هينمه

وأسلتها فوق الورود رشاشة ... ونثرتهـا فوق المراشف تمتمه

ونشرت من أحلام ليلك عالما ... قذفت جهنم - يا جهنم - معظمه

البدر .. حتى البدر ، يسبح في دم ... والشمس مطفأة النواظر ، مظلمه !

ويقهقه الشبح الرهيب ، ودونه ... جثث ، مخلعة الضلوع ، محطمه

ويمج من فمه الدماء ، ويلتظي ... غضبا ، فتمتلىء السكينة دمدمه

وتصر ماردة ، ويصرخ مارد ... وتثور زوبعة ، وتصفر جمجمه

حكم ! .. اذا جمح الخيال بشاعر ... ألوى بناصية الخيال ، وللمه

رحلة إلى القمر

عبد الرحمن عياش

غالب الهول في العلاء وراحا   يدرج الليل تحته والصباحا
فارس فوق صهوة العلم يجري   في فضاء والعقل كان جناحا
شاردا في مجاهل الكون يستقـ   ـصي خفاياه غازيا مجتاحا
فكأن المـزار ايوان كسرى   وسنى الغيب في البصيرة لاحا
وكأن الأبراج من طول عهد   بركت كالنعام وسنى رزاحا
لا تراه ولو تراه فطوراً   ذا هبوب وتارة سباحا
ليس هذا المطاف خفقة نسر   بجناح ولا المراد مزاحا
تسقط الطير ان تخطت مدى الريـ   ـش وتأوي الوكور والأدواحا

★ ★ ★

زعموا أن في النجوم حياة   وهواء طلقا وماء قراحا
نيرات تخالها من زجاج   خالق الكرم صاغها أقداحا
أين صفو الشراب أين الندامى   أين من جالس الصبايا الملاحا!؟
يتبرجـن والتبرج حسن   تلك مياسة وأخرى رداحا
فطنة من حكاية الدهر كانت   ومضة الفكر أشعلت مصباحا
فقديما طار البساط بأمر   من سليمان حكمة وصلاحا
حمل التاج والبهاء وعرشا   ظلل البحر والربى والبطاحا
معجزات من النبوات شتى   قد أمضت معاقلا ورماحا
وابن فرناس طار حسب هواه   فهوى عاثرا ومات طماحا
يعربي خياله من نزار   جاوز العزم والنهى والسماحا

وممات العظيم خطب جليل غير أن الزمان يأسو الجراحا

★ ★ ★

هكذا كانت الحقيقة شيئا ثم أضحت علما وفنا صراحا
فرحاب المريخ والقمر الوضـ ـاء هزت مغامرا طماحا
كل فذ وكل كاتم سر مكثوا في حصونهم شراحا
دربوه على الشدائد حتى أبصر المرتقى وجاز النجاحا
ضرب الجو بالعجيبة والابـ ـداع واستسهل المصير المتاحا
ألف روح تقمصت كهرباء وحديدا وحاذقا ملاحا
فكأن الصاروخ عفريت جن لذعته لظى فهاج وصاحا
وتلوت أحشاؤه وقواه فنزى ينطح المدى والرياحا
قد محا جريه سواد الليالي مستطارا وسود الاصباحا
فاذا رام حاجة في علاه جس من كل آلة مفتاحا
من رآه في شكله قال دعني قد نظرت العنقاء والأرواحا
فتسامى وما درى أغدوا بلغ القصد ركبه أم رواحا
قمر بالتمام سمي بدرا في الدياجير باسما وضاحا

★ ★ ★

نزل السطح حيثما أنزلوه ومشى فوق تربه واستراحا
مستتبا مستأنيا في خطاه كلما واصلوه زاد انشراحا
ما أتاه مبشرا أو نذيرا لعباد وما أتى رماحا

بل أتى كاشفا دهورا تقضت وبقاعا في التهلكات فساحا

فوهات على البلى هامدات ووهادا على المقيم براحا

فتملى المكان شرقا وغربا ورعاه فلم يجد لماحا

ملأ الكيل جوهرا من صخور وتمنى أن ينقل الصفاحا

ثم أسرى وعاد للارض شوقا ينشد الحب والشذا والراحا

عرفوه يا ليتهم جهلوه فمن الظلم أن يصير مباحا !!

فبه قد أقمرت ليالي العذارى وبه شبهوا الوجوه الصباحا

وغدا تنصب الخيام عليه حين يغدو للوافدين مراحا

وغدا تحفر المناجم فيه وتناغي سهوله الفلاحا

وغدا تقرع الطبول ابتهاجا بالذي صير اليدين جناحا

وصفوه فدق في العلم وصفا أكنوزا قد خبأوا أم سلاحا ؟!

يذر الأهل والديار هباء لا عويلا لا صرخة لا نواحا

خل تلك السماء فالأرض مأوا نا وخل الهموم والأترحا

فمن الظن أن يصيب ويلقى الـ ناس في عالم النجوم ارتياحا

كم بنينا من البقاء زيوفا وهدمنا من الفناء صحاحا

نحن في مسرح الحياة شموع خلف ستر تراقصت أشباحا

فلسفة اللذة

احمد الجندي

هات كأس الهوى فقد ظمىء العمر ... وتاقت نفسي لعهد الغرام

ذاك عهد الشباب خمر وأوهام ... ودنيا تفيض بالأحلام

يترك الفضل بينها تعب العيش ... ويغفو على الهوى بسلام

يتملى حياته جرعات ... من كؤوس تبرجت للمدام

نشوة يعبر الفؤاد بها الأرض ... ويسري على متون الغمام

خفيت لذة الوجود عن الناس ... فهم عكف على الآلام

عقلهم في الحضيض واللذة الكبرى ... ضياء يؤذي عيون النيام

لهم المنطق العقيم ورأي ... هو احدى عجائب الأوهام

قد يحسون بالشقاء ولا يدرون ... أن الشقاء ترب الحمام

يقتل المرء في الحياة فيحيا ... في عذاب من وهمه وظلام

مرضوا بالخيال فانقلبت ... دنياهم هيكلا من الاسقام

ويرون الدواء وهو قريب ... من نفوس مقرحات دوام

كيف يستعجل العذاب فؤاد ... يرقب الموت بين عام وعام

لم لا يترك الحساب ويفنى بين حس وصبوة وابتسام

كلما مرت اللذاذة ناداها مشوقاً لفتنة وهيام

دهره لذة تعل بأخرى ونشيد منوع الانغام

فرح بالحياة يبصر فيها من معاني الجمال كل مرام

* * *

أنا ذاك الذي يود بقاء مستديماً يقوى على الايام

وحياة تطول فيها اللذاذات وتنصب كالغيوث الهوامي

يتعرى لها الفؤاد خلياً من هموم رتيبة ونظام

أنا أعلو على الوجود بنفس تتعالى عن عالم الأقزام

عائش في السماء والناس ذرات خفاف تهب تحت قتام

فاسقني ، واسقني لذاذة دنياي ولا تستمع لنصح الانام

ودع الكائنات تغرق في شك من العقل موهن الاحكام

كل ما في الوجود غير اللذاذات هراء من منطق وكلام !




لبنان يحترق

بقلم

اسعد حبيب يوسف

لبنان أين الهوى والدفء والعبق — وأين فجرك أين الـرأد والشفق ؟!!

وأين الباذة الالحـان تعزفها — شبابة الأرز أين السحر والألق؟!!

أرى المحبة يا جيران قد طعنت — في القلب لـم يبق الا النزع والرمق

هيضت قوى الأمن وأغتيلت خفارتـه — وأهرق الدم حتى غصت الطـرق

تخضب الأرز واجتاحت خمائله — قبائـل الهون ، فهو اليوم يحتـرق

أفدي دمشق وقـد هبت لنجدتـه — من الحريق ، وفي أحشائهـا حرق

الشام أرحـم بالقربى وفتيتها — أعز من هتفوا بالضاد أو نطقوا

ضاع عمري

فؤاد

وليد قمباز

ضاع عمري يا حبيبي … بين سهدي ونحيبي

وترامى الامس حولي … صارخا يذكي لهيبي

ترقص الذكرى فأغفو … بين أزهار وطيب

وأراني حين أصحو … بت في روض جديب

أين آمالي وحبي؟ … أين أنغام دروبي ؟

كلها أضحت طيوفا … قد رنت بعد الغروب

يا حبيبي .. أي حلم مشرق قد ضاع منا؟

قد عشقنا ، وارتمينا في الروابي نتغنى

ومشينا في شعاب الحب نكسو الحب فنا

ونهلنا من رحيق القلب ما نرجوه مجنى

وشربنا ، وثملنا ، وروى الراوون عنا

اننا صنو غرام ، وعناق فيه نفنى

كم نثرنا في دنى الايام أحلى الاغنيات
كم زرعنا في فيافي العمر أندى الامنيات
كم سمونا ، وشدونا : هاك يا عمرى ، وهات
وأحلنا الليل والآفاق نجوى صلوات
فترامى حولنا السمار من كل الجهات
ينهلون الحب والاشواق من نبع فرات

غير أنا حين كنا في بحور الروح غرقى
نتساقى ، ونساقي جنة الاحلام دفقا
ونعيد الهمس آها ، ونذيب العمر شوقا
قد نسينا أن للايام نيرانا وحرقا
وخدعنا بظنون ، وحسبنا الوهم صدقا
وأرانا يا حبيبي .. ما عرفنا الحب حقا

كم وشاة زرعوا ما بيننا ألف حجاب
وبذور الشك القت في الفضا دفق ضباب
لم تعد تقبل بوحي .. لم يعد يضنيك ما بي
أنت حطمت كؤوسي .. أنت أهرقت شرابي
وتقضي كل يوم بين صد وعتاب
ولحون الامس باتت لحن يأس وعذاب



يا حبيبـــي لا تسلني .. انني مثلـك أسأل
في خيالي ألف ذكرى كـل ما فيها مدلل
كم نعمنا بلقـاء من طيوف الفجر أجمل
وشردنا ، وانطلقنـا ، ووردنـا النجم منهـل
ثم ضاع الحب منا ، والذى كان تحول
ولياليـك عذاب ، وعذابي فيك أطول

هكذا كنا .. وصرنا .. ليس في الامكان رد
ان في الحب نعيما ، وعذابـا لا يحـد
وبـه نبـع هناء ، ولـه قرب وبعـد
وبـه شجو ودمـع ، ولـه قبل وبعد
قـد لهونا ، ونعمنا ، وثواني الحب شهـد
وغدونا الآن طيفا في حنايا القلب يعدو

ذاك لحني يا حبيبي .. ذوب أطياب وكوثر
فيـه أمسي ، فيـه حبي ، وبـه الانغام سكر
وبـه من ذكرياتي كل ما يصبي ويسحر
يا حبيبي .. لا تلمني .. ان روضي عاد أخضر
لي حروف لم أقلها .. من ربيع الخلد أنضر
أنت عيني .. أنت ذاتي .. أنت عمرى .. أنت أكثر

بلاد احبابي

اسماعيل عامود

ماذا يضر الناس لو أدعي حباً ، وعاه الدهر في أضلعي..
لن تظلم الدنيا بوجه الهوى ما دام في الأعماق روح تعي.!
سمراء ، يا أنبل ما أرتجي .. هل أرتجي غير الوفا الطيع ..؟
فلي من الأشواق ما أشتهي ولي من الأيام ما أدعي ...

★ ★ ★

سمراء ، ان أمضي ، ويبقى الهوى للناس ، هل يكفيك أن تسمعي..؟!
أحببتني طيفاً ، هزيل الخطى مقوض المنكب .. والأذرع
يرضيك من آماله .. أنه أفرغ أكوابي ، ولم يردع
فرحت من همي أصيد الرؤى وبي جنون العاشق الموجع
أعيش في الذكرى غريب المنى كما يعيش الطير في البلقع

★ ★ ★

بلاد أحبائي أصل الهوى فأي سفح فيك لم يمرع
على فمي أغرودة ما ونت أصداؤها تنداح عن مبدع ..
غداً ترود الكون مخلوقة جمالها من أفقنا الأوسع
فتسأل الأجيال عن مهدها وتحلم الأزمان بالمرتع ...
ان تقفر الدنيا فحسب الهوى سر بعينيك .. ويبقى معي



ياسين فرجاني

كتبت اليك باسم الحب ما ألقى من الحب

فجف مداد أقلامي بما سطرت من كتب

ألملم كل أشواقي وأنثرها على دربي

وللذكرى رؤى تنهل ، تغرق بالاسى هدبي

وحسبي أنت في قلبي على الايام .. يا قلبي

كتبت اليك باسم الحب :أن ربيعنا ولى

وأن خريفنا الظمآن قبل أوانه حلا

وكنا نزرع الآمال فوق دروبنا فلا

ونلقي من أمانينا على آفاقها ظلا

فما ذنب الهوى ان شح نبع العمر أو قلا !؟

. . .

كتبت اليك باسم الحب : أن يلقى مراسيه

شراع مرهق ، عان يظل يدور في تيه



رجاء كان ينشره ويأس عاد يطويـــه
ومن شط الهوى المهجور أصوات تناديه
ثمالة ما احتواه الكوب أغلى جرعة فيه!

. . .

كتبت اليك باسم الحب: يا سمعي ويابصري
أعلل نفسي الولهى بوعد منك منتظر
ولولا الحب ما للكون من معنى ومن أثر
تجلى في ضمائرنا دنى قدسية الصور
هو الالهام، خص به قلوبا، خالق البشر

. . .

كتبت اليك باسم الحب: أن نحيا كما كنا!
نطير، نجوب دنيا الله، نزرع رحبها أمنا
لنا ملكوتنا الاعلى نحلق فيه .. والادنى
وتحكي نجمة .. أشهى حكايات الهوى عنا!

. . .

كتبت اليك باسم الحب: جرح الحب لا يبرا
نذوق نعيمه شطرا ونجرع بؤسه شطرا
فلا نشفى به قربا ولا نستطيعه هجرا!
سراب خادع والعمر درب مفازة كبرى
وهيهات الذي ولى يعود وقد غدا ذكرى!؟





البحرتان

رضا حبيب

١

البحرتان خضيبتـــان والنبـع موسيقي كمانْ
والنور يرقص في الضفاف كغادة في مهرجان
وملاعب بالحسن غارقة ، معطرة المجاني
صنوان فيها العطر ملتفت الى وعد ، وران
والسفح يلثمه الصباح معطر الانسام واني
غاف على هضباته المزدانة الخضراء حـــان
نديان يدرز كـــل درب بالمحبة والاماني !
ومواكب للطير تهـــزأ بالزمان وبالمكـــان
يا طيبها دنيـــا يغار لحسنها حسن الجنان

٢

الفجر يلهث فوق سطحهما بثوب أرجواني
وعليهما من ذوب ألوان الاصيل جديلتان
والفاتنات الحور ملء الدرب ساحرة المعاني
النور والعطر المسافر في الحدائق عاشقـــان
تومي اليَّ ضفائر شقر ، وتغمزني يدان
والدرب سكرى بالجمال • كأنما شربت بياني

٣

وخمائل تفتن بالاشجـار من أرز وبـــان
الحور أطول من قوام الريح بالهيف اللدان
وقطيع أطيار يوزع في الربى حلو الاغاني



سكر العقول هتافها ، وجمالها سكر العيان
خمر معتقة ولكن لا تمت لبنت حـان
ما ذاق أكؤوسها « الوليد » « ولا غياث » ولا ابن هاني
النازلات على الدروب كأنها الغيد الغواني
أفهمنني معنى الغرام على خلاف في اللسان
فأثرن بي شوقا الى اللقيا وأشعلن افتتاني
للحب سر ليس تدركه العقول بترجمان
الهاتفات .. وسال كنز السحر بالدر المصان
الرافلات كأنهن كسـين بالوشي اليماني
من أصفر كالورس أو أخضر عطر ، وقان

٤

أين البحيرة من أماني المعتقة الدنـان
وأنا الحزين .. وعاطر حزني كأحلامي الحسان
لكنني أسقي الردى من أن ألوث بالهوان
لم ينخفض رأسي لطاغية ، ولم أسلم عناني
وتكاد تندك الجبال ببعض ما منـه أعاني
ما أبعد المجد الكبير عن المخاتل والجبان

٥

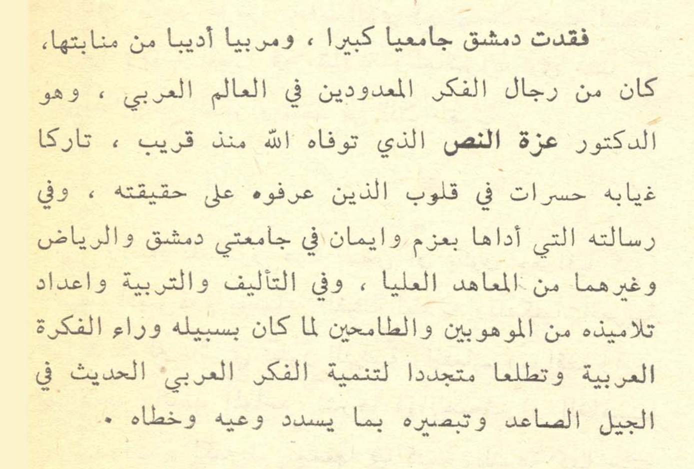
أرثي من الدنيا فم عطر الشراب وناهدان
لـولا الهوى المغروس في جسدي لثرت عـلى الزمان
بالورد غسلني وعمـدني بمـاء الزعفـران



الدكتور عزة النص

فقيد الفكر والعروبة والجامعة

وداد سكاكيني



فقدت دمشق جامعيا كبيرا ، ومربيا أديبا من منابتها، كان من رجال الفكر المعدودين في العالم العربي ، وهو الدكتور **عزة النص** الذي توفاه الله منذ قريب ، تاركا غيابه حسرات في قلوب الذين عرفوه على حقيقته ، وفي رسالته التي أداها بعزم وايمان في جامعتي دمشق والرياض وغيرهما من المعاهد العليا ، وفي التأليف والتربية واعداد تلاميذه من الموهوبين والطامحين لما كان بسبيله وراء الفكرة العربية وتطلعا متجددا لتنمية الفكر العربي الحديث في الجيل الصاعد وتبصيره بما يسدد وعيه وخطاه .



كان الفقيد عزة النص في حياته وسلوكه يمثل الكرامة الانسانية والوطنية ، فما حاد عن كرامته في كفاحه الطويل ، البعيد عن الاضواء والضوضاء ، ولم تكن عزة نفسه التي انعكست على شخصيته وتأبت على الملق والرياء ، الا سجية موروثة ممن أعده لعصره وبلاده من

هؤلاء الذين بنوا في صمت واخلاص للمروءة العربية والاصالة الدمشقية وقد وهبوا حياتهم وسعيهم لغيرهم واختصوا أنفسهم بعلم على اصطلاح أيامهم ، تلقوه من أعلام المحدثين والمصلحين ليضيئوا قلوبهم ودروبهم ، ويلقوا النور على منازلهم وأعمالهم فنشأ أولادهم على مفاهيم الحق والتقوى ، وكان عزة النص من هؤلاء وقد أوتي الموهبة الادبية المبكرة فما جارى لذاته في القناعة بثقافتها وبيانها واتخاذها وسيلة للظهور ، بل حفزه طموحه لناحية عملية شكت فراغها حاجة التعليم الحديث الى ملئها بالجغرافية على اختلاف جوانبها وما يتصل بها من علمي السكان والاجتماع ، واستطاع طموح عزة النص أن يحقق له اختصاصه بالناحية العلمية التي اتجه اليها والحصول على أرفع الدرجات الجامعية فيها ، فانصرف الى البحث والمحاضرة والتأليف ، وعلم طلابه اتقان ما يعدون من دراسات منهجية حتى جعل منهم دارسين ونقادا ، وربما كان تأثيره فيهم بما أوتي من رجحان الفكر والثقافة ووقار الشخصية وهدوء الطبع أشد من تأثير مؤلفاته ، وكان لهذا الاستاذ المتعدد المواهب أسوة بالطليعة الجغرافية على ضفاف النيل وفيها المفكرون والادباء الذين كان من أشهرهم الاديب الدكتور محمد عوض محمد الذي لمع اسمه وصيته أستاذا جامعيا وكاتبا كبيرا في مقالاته ومحاضراته وفي نقله الى العربية روائع الفكر والنقد من أدب الغرب ٠

وأتيح للدكتور عزة النص أن يكون جغرافيا كبيرا ومربيا أديبا قدم مؤلفاته القيمة لطلابه وللمكتبات العربية كما كانت له مآثر في تطور التربية والتعليم ومواقف وآراء في الادب والنقد المعاصر نشرها في الصحف أو ألقاها في الندوات ، لكنه لم يجمعها في كتب مطبوعة كما صنع أنداده في جمع مقالاتهم ومحاضراتهم كتبا ومنشورات اذ كان هذا المفكر الكبير يرحمه الله زاهدا في الظهور ، راجيا أن تساعفه الايام والظروف في اعداد دراسات جديدة في النواحي التي تنتظر من يلقي عليها نورا جديدا ويعالجها بتفكير حديث ولم يكن يعلم أن أجله سيدركه في عز شخصيته ورجولته ونضج آرائه ٠

ولا بد من القول بأن الدكتور عزة النص كان لايغفل عن موضوع العروبة في مفهومها القديم والحديث ولكم طاب لصديقه البحاثة المفكر ساطع الحصري أن يتجاوب معه في هذا الموضوع وأن يتعمقا فيما دار حوله ، ومن يدري فقد يكون بين مخطوطات الفقيد عزة النص دراسة في العروبة وقضاياها الراهنة ، فما أجدر النتاج الفكري لهذا الكاتب الناقد بدراسة تكشف عن قيمته في مؤلفاته المنشورة ومقالاته المطوية في الصحف ٠

ولو شئنا أن نعدد مآثر الدكتور عزة النص في حياته وكفاحه ، وفي أسرته والمجتمع الذي عاش فيه لضاق المجال ، وحسبه أنه كان يعمل في صمت لغيره ويتفقد الزملاء والاصدقاء الذين ساروا في دربه طويلا ، ثم دهمتهم المحن والبغتات ، فأبى وفاؤه في اقبال الثقة عليه وحمل التبعات الا أن يردهم الى البشاشة والامل ، فاذا غاب وجهه عن أسرته التي نزلت بها هذه الفجيعة ، وعن الحياة الفكرية التي اعتزت به جامعيا كبيرا ، ومربيا أديبا فقد ترك الدكتور عزة النص مثالا رائعا في سيرته وآثاره وتلاميذه سيبقى في تاريخنا الحديث قدوة وذكرى لجيل بعد جيل ٠

الأديب والحياة

بقلم ايليا اهرنبورغ
ترجمة احسان سركيس

لكل كاتب اسلوبه في الاداء ، لهذا لا توجد وصفات عامة ، ومن الخطـر أن تزجى النصيحة الى كاتـب ناشيء باتباع هذه الطريقة أو تلك لاننا نغامر عندئذ بتلقينه لا الكتابة وانما النقل • لهذا أسألكم أن تعتبروا ما سأفضي به اليكم بمثابة وصف لطريق اتبعها أحد الكتـاب دون أن يغرب عن بالكم أنه توجد من الطرق بقدر ما يوجد مـن الكتاب •

وبادىء ذي بدء ، أود أن أحدثكم كيف يتم تكوين الرواية • واستميح لنفسي اختيار رواية « العاصفة » لانه أيسر على المرء أن يفسر عددا من الامور بالرجوع الى تجربته الشخصية •

في خلال الحرب ، كنت أفكر في رواية « العاصفة » ، وما كتبت الرواية يومئذ وما كانت تمكنني كتابتها ، اذ شغلتني عنها مشاغل أخرى • لقد بدأت الحرب ، بالنسبة الي في عام ١٩٣٦ ، وعندما انتهت في التاسع من أيـار عام ١٩٤٥ كنت أود أن تنتهي بالنسبة الي أيضا • وكنت أعلم أنني اذا شرعت في كتابة ـ العاصفة ـ فستظل الحرب بقربي ، في مكتبي وعلى طاولة عملي ، في ضميري وقلبي • وحاولت أن أبرر لنفسي قعودي عن ذلك بقولي لها : ان كتابا أخرين سواي كانوا يكتبون روايات عن الحرب ، وهم محاربون بسطاء وشبان انتقلوا مباشرة من مقاعد الدراسة الى الخطوط الاولى • « وأضيف على ذلك الان ، وأبقى موفقا أن خير الكتب عن تلك الحرب لم تكتب بعد ، فهؤلاء انمـا يكتبونها أو سيكتبونها لاناس كانت الحرب أول امتحان كبير لهم » •

لم أشأ أن أكتب رواية « العاصفة » في حينه فما بالي قمت بذلك ؟ ولم تم ذلك ؟ لقد كنت استشعر أن الموتى لهم حقهم في الكلام وكنت أفكر بالاقرباء والاهل الذين لم يعودوا من الحرب واستحضر القصص والاعترافات التي أتيح لي أن أسمعها في الجبهة ، فكنت أقول لنفسي : هؤلاء لم يعـد بمقدورهم أن يقصوا كيف عاشوا وكيف قهروا وكيف ماتوا وشرعت في الكتابة لانني لم أكن أسـتطيع التخلص من ذكرياتي ولم أكن أستطيع التملص مما يبدو لي فرضـا واجبـا •

يمكن أن تكون « العاصفة » رواية رديئة ، ولكنني لست أسفا على كتابتها •

لقد أجاب تولستوي على سؤال ليوفيد اندرييف عما يلزم المرء ليكتب بصورة جيدة ، بقوله : « اذا استحوذت على فكرة كتاب ما ولكن لم يكن في مقدورك أن تكتبه فلا تفعل » انني أعتبر هذه الكلمات حكيمة ورصينة ، انني لا أفهم القاريء الذي يلوم الكاتب مثلا ، لانه لم يكتب هذه الرواية أو تلك • أو لم يكن أقرب الى أصالة الرأي موقف القاريء الذي يقول للكاتب ـ س ـ : لماذا كتبت هذه الرواية وكان بوسعك أن تظل بمنأى عن كتابتها ، وذلك أفضل بالنسبة لك وبالنسبة الي أنا بوصفي أحد القراء •

عندما تكون المرأة حبلى فيجب أن تضـع حملها والا ماتت • ولكن ، هل في الامكان أن نتخيل ما هو أبغض من تمثيل الوضع دون مقدمات الحمل الاولية ؟ يمكن أن يكون المرء كاتبا صغيرا ومؤلف كتاب من سقط المتـاع ، ولكن يمتنع على الكاتب أن يكتب آثارا تنطوي على كل شيء ، ما خلا الضرورة الداخلية ، آثارا حـاذقة ولكن تنقصها الروح فتترك القاريء في دنيا اللامبالاة •

ـ عش الرواية قبل أن تكتبها •

من المتعذر أن يشرع المرء في كتابة رواية ما ابتداء من لا شيء : عليه أن يعيشها أولا •

واننا لنسمع من يقول : ان على الكاتب أن يـكون مستجمعا « لموهبة الملاحظة » ، وهذا أمر لا يمارى فيه ،

ولكن ، أين تكمن « موهبة الملاحظة » هذه لدى الفنان ؟ ان مصورا ينقل المشاهد بآلته ، يجتهد ألا يفوته الرجال العظام لحظة واحدة، وهو يبحث عن المشاهد العامة والاوضاع المعبرة محركا عدسته دون انقطاع • انه ـ يلاحظ ـ ولا أحد ينكر عليه ذلك • رانبراندت قد رسم ، في معظم الاحيان ، أشكال الاشخاص الذين يساكنونه ، في بيته وفي جواره ، ولكنه كان ، في رسومه ، يميط اللثام عن نفوس نماذجه • وها نحن أولاء نقف اليوم أمام لوحاته وقد هزتنا روعتها • ان الآلة الفوتوغرافية يمكنها أن تسجل صورة أي انسان وأي مشهد ، ولكن الفنان وحده مفروض عليه اختيار نماذجه • ان موهبة الملاحظة لديه مشدودة الى طبيعة نفسه وماضيه الخاص •

ان لبعض الاقمشة خاصية اعتلاق بعض النباتات والاشواك ، وبعضها الاخر ليس له هذه الخاصية • وبوسعنا القول ان للادب أيضا لبوسه الخاص لاعتلاق هذه الرءوس ، وهي الاهواء والافراح والاتراح ، بيد أن هذه الرءوس لا تعلق جميع الناس • ينتقل الاديب الى أوساط الناس أنفسهم وغالبا لا يعيرهم انتباها ، ولكنه يظل سنين طويلة يحيا مصير الاخرين ونجاحهم وأخطاءهم وانطلاقهم وسقوطهم •

ولكي ندرك هذه السمات التي تلازم الاديب يكفينا أن نعير انتباها للقراء أنفسهم • ان القراءة ، في ذاتها ، ابداع أيضا ، والقارىء هو الذي يكمل الرواية • وأذكر مؤتمرا ضم قراء رواية ـ العاصفة ـ وكان الطلاب والطالبات قد قرأوا النصوص المعدة سلفا ، وحاولوا جاهدين أن يحاكموا الانتقادات التقليدية وتحدثوا عن هذه النصوص المكرسة لرواية ـ العاصفة ـ أكثر مما تحدثوا عن الرواية نفسها • وعندما انتهى الاجتماع ثارت بينهم مساجلة حامية : وتجابهت فتاتان واختلفتا حول موضوع البطل • قالت احداهما : « كم أود أن أصادف في الحياة رجلا مثل سيرجى » وأجابتها الاخرى : « لست أدري ما الذي تجدينه فيه من الخير ، انه صفر ، انه من سقط المتاع » • وقد كان لهما العمر نفسه وتلقتا تربية واحدة وتحملان ، عموما ، مفاهيم متشابهة • ولكن كلا منهما قد أتمت الرواية بخيالها وبخبرتها العاطفية وبسماتها المنبثقة عن ذاتيتها • وهكذا خلق ـ سرجييان ـ اثنان متفاوتان •

ولنتخيل كاتبين يتوجهان الى هاتين الفتاتين ، فمن المشكوك فيه أن يتمكن أحد هذين الكاتبين فهم هاتين الفتاتين ، فللكاتب سمته الخاصة وتجربته وخياله ، وهي التي تقرر تخيره لبطل رواياته • ان موهبة المراقبة التي يتمتع بها الكاتب ليست في تسجيل الحوادث والصفات والخصومات • انها موهبة أن تحيا هذه الامور ، فعندما يقال ان أديبا يتعلم ، يفهم من ذلك أنه يتعلم حرفة الادب • يمكن أن يجيد المرء الكتابة دون أن يصبح بذلك أديبا • ان الاديب لا يتكامل على منضدة عمله فحسب ، وانما يتكامل في أتون الحياة لان الاهواء نفسها يجب أن تسبق وصفها •

الاهواء البشرية لا تجنى كما تجنى الغطور

مما لا ريب فيه أن الرحلات تؤمن الشيء الكثير للاديب، كما تؤمن ذلك لكل انسان • وطبيعي أن الاديب الذي يكون بمعرض تحضير أو كتابة رواية ما ، بوسعه أن يقصد مدينة نائية ، أو ترسانة للسفن أو قرية ليمحص هذه السمة الجزئية أو تلك من سمات الحياة الجارية أو هذه الناحية الجزئية أو تلك من قوام الرواية أو جوهرها ، حيث تتم الحادثة التي يروم اظهارها • ولكن من السذاجة ظنه أنه بهذا العمل يجعل الرواية في متناول يده وانه ، باتباع هذه الطريق سيجد ، طوع يده ، فكرة الكتاب الذي اعتزم كتابته يمكن أن يتنزه المرء في غابة بحثا عن الفطور ، ولكن من العسير أن يتخيل المرء نزهة مخصصة لجني الاهواء الانسانية. فلكي توجد بطلا لا يكفي أن تعثر عليه بل عليك أن تفهمه وهذه المهمة مرتبطة بماضي الاديب نفسه •

من البين الجلي أن الاديب لا يمكنه أن يحيا كل ما يصف وكل ما عاشه أو يعيشه أبطاله • عليه أن يمسك بمفتاح قلوب الاخرين • بعض الكتاب يمتلكون عددا كبيرا من هذه المفاتيح وبعضهم الاخر يمتلك عددا أقل، وما وجد ولا يمكن أن يوجد أدباء ، مهما تكن درجة عظمتهم، يتصرفون بمجموعة كاملة من هذه المفاتيح •

ويمكن أن يعترض علي معترض بقوله : عندما جرت الاحداث التي وصفها تولستوي في رواية ـ السلم والحرب ـ لم يكن تولستوي قد وفد على هذا العالم بعد• يبدو أن هذه الحجة تبعث على الاقناع ولكنها ليست صحيحة الا ظاهرا • أنا أعتقد أن تولستوي لم يكن بمستطاعه أن يصف حرب ١٨١٢ ، بهذا القدر من العظمة ، لو لم يكن في ـ سيبا ستبول ـ كضابط في المدفعية ، اننا على اتفاق في هذه الناحية • لقد كانت الحربان مختلفتين شكلا وموضوعا ، ولكن تولستوي كان قد عرف حقيقة الخوف والشجاعة ومجاورة الموت كل يوم وحقيقة المعركة ، وهذا ما هيأ له أن يبعث الحياة في رواية تاريخية •

ان كاتبا مزودا بدفتر مذكراته يصل الى الصفوف الاولى في الفرقة : يود أن يتعلم كيف يقهر الخوف • فهو يستجوب الجندي ـ فروسار ـ الذي قبض العشية على أحد الاسرى ، فيقص عليه فروسار ما حدث أو بالاحرى ما جرى تثبيته في صحيفة الفرقة • ولو أن فروسار هذا استطاع أن يجلو ما دار في رأسه وقلبه منذ اللحظة التي قفز فيها خارج الخندق حتى اللحظة التي تقبل فيها تهاني القيادة لكان نصف كاتب • واعادة تكوين العالم الداخلي لفروسار ، استنادا الى اعترافاته الغامضة غير المترابطة، مهمة سهلة هينة وعسيرة صعبة في آن واحد ، اذ لا بد من ايجاد المفتاح •

واسمحوا لي أن أضرب مثلا تافها : في أحد الايام جاءني مؤلف شاب ، وكنت أشكو من صداع في رأسي ورحت أبحث عن حبة ـ باراميدون ـ في الانبوبة • وما ان ابتلعتها حتى ابتدرني بقوله «: هل زال الالم ؟ وفيما هو يهم بالرحيل إستأذنني في طرح هذا السؤال : قل لي : أهو ، حقا ، مؤلم وجع الرأس ؟ الواقع هو أنه لم يشك مرة واحدة من صداع في رأسه • وبدهي أن الامر سواء بالنسبة اليه ، وأنا أغبطه من كل جوارحي • ولكن افترضوا أن هذا الرأس الذي لم يعرف الصداع قد تولدت فيه فكرة وصف ألم الرأس • وهو ، اما أن يستنسخ عدة سطور يستقيها من كاتب آخر واما أن يؤدي ذلك ببعض الحماقات التي تثير القارىء وتحمله على الضحك •

ومن المؤكد أن ما أود الاشارة اليه ليس هذا الفتى اليافع ولا صداع الرأس ، وانما هو الضحك والحنق اللذان يهزان القارىء في بعض الاحيان عندما يقرأ وصفا لافكار وعواطف غريبة عنه • من غير المستحب أن يصف أحد الكتاب عالما لم يره بعينه • بعض النقاد لدينا يأخذون على هذا المؤلف أو ذاك جميع ما خلت منه روايته ، ويعدون بذلك قائمة شيقة بكل ما ينقص الكتاب • وعندما نقرأ أمثال هذه المقالات سيتداعى الى الذهن ، بصورة خاصة أن الكتاب قوم مهملون طائشون : فهم لا يضيعون نظاراتهم وغلاييهنم فحسب ، وانما ينسون عندما يشرعون في اعداد آثارهم أن يضمنوها الجوهر الحقيقي • ومع ذلك فليس لكل كاتب سقف بيته فحسب بل له جدرانه أيضا • وعندما ينصاع الكاتب لنقد المقربين اليه ويشرع في وصف أشياء تكون غريبة عنه داخليا وغير مفهومة منه ، فقد يصل به الامر الى تضمين الرواية الجيدة صحائف يقول القارىء عنها وهو يتصحفها بملل : هذه ! لقد أخطأ كاتبها الصواب •

حالة مرسيل بروست

لا حاجة ، اليوم ، للبرهنة على أن الكاتب الذي يعتزل المجتمع انما يحكم على نفسه بالعقم ثم الموت • ان جميع مواطنينا ، اليوم ، يدركون ذلك • حاول ناقد فرنسي أن يبرهن على أن الكاتب قادر على أن يؤلف كتبا حتى ولو كان في جزيرة مهجورة • وضرب على ذلك مثلا مرسيل بروست الذي كتب سلسلة من الروايات وهو رهين غرفة لها جدران لا ينفذ منها الصوت • ولكن مرسيل بروست قبل أن يضيق على نفسه في هذه الغرفة كان قد عاش حياة المجتمع وتيسر له عدد من الامور كان يدفعه الى وصفه •

ان اتصال الكاتب بالمجتمع لا يمكن أن يكون سلبيا ، ولا يكفي أن نتأمل الحياة بل علينا أن نشارك فيها • ولاشيء أضر بكاتب ناشىء من التفرغ الادبي الباكر الذي يبعده عن اترابه وعن حياتهم اليومية وكذلك عن أعمالهم •

لنذكر السنين الطويلة التي تتلمذ ، خلالها ، مكسيم غوركي في ـ جامعة الحياة ـ ولنذكر ما أفاءت به مهنة الطب على تشيكوف • ولا أحد يدهش من أن خيرة الاثار الادبية التي كتبت عن الحرب الاخيرة كرواية « في خنادق ستالينغراد » و « النجمة » انما كتبت من قبل أناس كانوا يعملون في الجبهة لا كمراقبين وانما كمحاربين •

في العهد الماضي ، لم يكن الادب ، في روسيا، في متناول عدد كبير من الناس ، وبصورة أعم لم يكن في متناول جميع الناس • فالناس البسطاء كانوا يجهلون أسماء الكتاب الشرفاء ولكن هؤلاء كانوا يعرفون تمام المعرفة حياة الناس البسطاء لانه كان على كل منهم ، حتى بلوغه الثلاثين أو الاربعين أن يزاول مختلف الحرف ما خلا حرفة الادب • وكان خلف كل واحد منهم ، العديد من الحرف • ان قراءنا جميعا يعلمون أشياء كثيرة من كتابنا ولكن كتابنا ، ولنقلها بصراحة ، لا يعلمون جميع نواحي الحياة التي يحياها قراؤنا •

يسألونني في بعض الاحيان : « ما هو الانموذج الذي جعلته مثلا تحتذيه لتكوين مادو ؟ » أو بالاحرى ـ ما اسم سيرجي فلاكوف في عالم الواقع ؟ ـ بعض القراء يتخيلون الكاتب يتجول في العالم باحثا عن بطله ، وما ان يعثر على ضالته يدخله في كتابه ، محتفظا باسمه أو خالعا عليه اسما آخر • ان أبطال الرواية يولدون في عقل الكاتب ، والبطل مزيج من الاشخاص • ولكي يتسنى خلق ـ مادو ـ يجب أن نرى فتاة صغيرة أو مائة فتاة ، ولكن ذلك كله لا يكفي ، وعلى الكاتب أن يضيف شيئا من ذاتيته الى هذا المزاج •

يمكن أن تقارن عين الكاتب بالاشعة السينية ، فهي تنفذ الى الاغوار وتسمح برؤية المرء من الداخل • ومهما يكن من أمر ، ورغم هذه ــ الاضاءة ــ فان جزءا من العالم الداخلي للبطل يعز على البحث • ان المؤلف يفترض أمورا جمة ، بالاستناد الى تجربته الخاصة ، ويضفي على أبطاله ، دون ريب ، شيئا من عواطفه الخاصة •

جزم بعض الباحثين بأن نبأ نشر في صحيفة ، يصف انتحار امرأة شابة هو الذي أوحى الى تولستوي بفكرة ــ أنا كارنينا ــ • يمكن أن تكون الفرضية مستندة الى أساس ، ولكنها لا تفسر الناحية الهامة الرئيسية وهي عمق وحقيقة البطلة • ان ما يأخذ بلبنا في رواية ــ أنا كارنينا ــ هو وصف الحب ، وكثيرات هن القارئات اللواتي تسالن : كيف تسنى لتولستوي أن يدرك العذاب المحيق بقلب امرأة • من المؤكد أن تولستوي يعرف كيف يغوص ، بنظرة واحدة ، في مطاوي القلوب ! ولكننا عندما نقرأ يوميات ورسائل تولستوي ندرك أن شخصية أنا كارنينا تنطوي على الكثير من التجربة العاطفية للقصصي نفسه • ولعل هذا السبب وحده هو الذي جعل مصير ــ أنا ــ قادرا على أن يهز الى اليوم القارئات • ان نضارة وعظمة العواطف تنسي القارىء ما تواضع الناس عليه في الفترة الغابرة •

كان فلوبير يقول : « ايما هي أنا نفسي »

قرأت ، في السنة الغابرة مقالة فرنسية خصصت لظهور الانموذج الثاني عشر لرواية ــ مدام بوفاري ــ فبعد أن نقب الباحثون في سجلات مدينة ــ روان ــ واستجوبوا السكان المسنين جزموا بوجود امرأة اتخذها فلوبير مثالا احتذاه في روايته • وارتسمت على شفتي ابتسامة لدى قراءة المقالة لانني تذكرت رسالة موجهة من فلوبير الى أصدقائه يتحدث فيها اليه عن الرواية التي شرع في كتابتها بقوله : « ان ايما هي أنا نفسي » •• يمكن لمثل هذا الاعتراف ، لاول وهلة ، أن يجبه المرء • فمن جهة ، نرى شخصا عازبا شابا دائم التذمر وصاحب اسلوب لاذع يعيره تورغينيف ، المتشدد في نقده ، أذنا صاغية ، ومن جهة أخرى نرى ريفية شابة تتبع هواها سريعة الانقياد لنداء الحب في الوقت نفسه • يعتقد بعضهم أن لا علاقة بين الواحد والاخرى • ومع ذلك فلم يغالط فلوبير في رسالته ، وكل ما في الامر أنه ترك هذا الاقرار يفلت منه • واذا انعمنا النظر في ترجمة حياته وفي عجزه عن مقاومة الحب وفن الاندهاش المضحك الذي كان يعتريه ازاء ــ الجمال ــ وفي قسوة حياته اليومية التي كانت تلازمه ، رأينا أنه قد بذل الكثير من ذات نفسه في شخصية ــ ايما ــ • وهذا ما أتاح لمدام بوفاري المسكينة أن تبقى حية ، لا في الزوج والصيدلي والعشاق فحسب وانما في مؤلف رواية ــ سلامبو ــ نفسه •

ثمة كتاب يضعون تصميما كاملا بالجزئيات كافة ، قبل الشروع في التأليف • وآخرون غيرهم يشرعون في الكتابة وقد تملكتهم فكرة غامضة عما يجب أن يكتبوا • وقد أفضى الي الكسي تولستوي ، ذات يوم ، بأنه ظل يكتب بضع صفحات وهو جاهل بما سيحدث لبطله • فهو يكتب الرواية كمثال يعجن الطين فلا يلبث الوجه أن يخرج من الطين تدريجيا • وثمة كتاب آخرون يماثلون ، بوجه عام ، المهندسين المعماريين المزودين بالمسطرة والبركار • وحتى لدى هؤلاء لا يبرز البطل بأجلى صفاته الا بعد كتابة مائة أو مائتي صحيفة • ويبقى التصميم باستمرار خاضعا لتعديلات تطرأ عليه ، وذلك منذ اللحظة التي يأخذ فيها البطل بمناهضة المفاهيم الاساسية التي يدين بها الكاتب • بوسعي الاعتراف بانني كنت أود أن يكون مصير سيرجي ومادو وبقية أبطال رواية ــ العاصفة ــ على اختلاف ما ورد في الرواية • وعندما بدأت أكتب روايتي لم تكن الشخصيات تبدو لي الا متنقبة بالغموض ، وعندما يصبح البطل انسانا من لحم ودم ، يمكن أن يمضي في غير الطريق التي تخيلها الكاتب عندما لم يكن بطله ، بعد ، سوى طيف غامض •

« الاب غوريو » يوشك أن يلفظ أنفاسه •

يأخذون على الكاتب ، في بعض الاحيان ، الاخطاء التي يقترفها أبطاله • ويمكن أن يكون الكاتب أبعد نظرا وأرهف حسا وأنضج فكرا من أبطاله ، ومع ذلك يبقى عاجزا عن أن يفرض عليهم منطقه وأخلاقه • ولولا ذلك لما زاد ما يبرزه للقارىء عن مخطط لا يمثل شيئا عوضا عن قصة يعرض فيها كائنات حية بما فيها من قوة وضعف •

أنا لا أعتقد أن الكاتب يمكن أن يظل غير مبال ازاء أبطاله • فوصف الموت معناه استباق وصف ميتة الشخص نفسه • وقد ذهب ، مرة ، أحد أصدقاء بلزاك لزيارته فوجد الكاتب وقد انزلق عن كرسيه ونبضه خافت غير متسق • فصرخ الصديق « ادركوني بطبيب ان السيد بلزاك يلفظ أنفاسه » • فأعاد الصراخ بلزاك الى وعيه فقال له : « انك لا تفهم شيئا ان الاب غوريو هو الذي يلفظ أنفاسه » •

تلقيت عددا كبيرا من رسائل القراء يبدون فيها استياءهم لموت بطل رواية العاصفة سيرجي • ومن مزيد حبور الكاتب أن يصف السعادة لا التعاسة • وكثيرا ما يحدث لي أن أغبط ديكينز ، ففي رواياته نشاهد الرجال يتألمون

والازواج يفارقون نساهم والفتيان خطيباتهم والابناء أهليهم ، ولكن شمل الجميع يلتئم في نهاية القصة بصورة الزامية ويأخذ كل منهم مكانه على المائدة العائلية وقد غمره شعاع عذب • وبنفس مرحة ، يستحضر كل منهم التجارب الغابرة التي مرت به • واني لاتخيل ديكينز يتجول بعد أن أنجز كتابه ـ دافيد كوبرفيلد ـ أو ـ اوليفر تويست ـ يصاحبه أشخاص سعداء • ان سعادة الابطال تبعث الدفء في نفس الكاتب •

ولنعد الان الى المصير الذي آل اليه سيرجي • بعد النصر ، أصبح من الندرة بمكان ألا يوجد على الموائد العائلية لدينا مكان شاغر على الاقل • نحن نعلم مقدار الثمن الذي أديناه لانقاذ العالم من البربرية الفاشية • ان أحداث أبطالنا لا تدفعنا الى الخمول وانما تستنهض هممنا •

فكروا في النتائج السعيدة لروايات ديكينز ، فبينما يجتمع أبطاله ، وهم يمرحون حول المائدة العائلية يستمر في المنزل المجاور ، تعذيب الاطفال ، ويستمر البؤساء يئنون في السجن من أجل دين لزمهم سداده ، وتستمر الفتيات يلاحقن العار • ان ملايين المصائر تبقى متماثلة وليست سعادة أبطال ديكينز الا ورقة يانصيب رابحة • تلكم هي فلسفة ذلك العصر وذلكم هو المجتمع الذي تكنف ديكينز •

كتبت « العاصفة في فترة من الاضطراب العظيم ومن المعارك التي لم يشهد لها مثيل من قبل • ان نهاية هذا الكتاب هي الظفر أي سعادة الشعب • ولكن هذه السعادة مشدودة الى المأساة الفردية المحيقة بعدد كبير من الناس الذين فقدوا أقاربهم خلال الحرب ، أولئك الذين ينتظم عقدهم حول المائدة ويتأملون المكان الذي بقي شاغرا ويعرفون أن شقاءهم كان تضحية مقررة لكي يصبح مصير الملايين من الناس أفضل وأحسن • وذلكم هو الفارق الاساسي بين النهاية « المحزنة » للعاصفة والنتائج « المفرحة » لروايات ديكينز •

من المستحيل أن تحدد النظام المعقد المخصص لجعل العالم ، عالم الانسان السوفيتي ، مرهونا بغاية قائمة بذاتها • ومن المستحيل تبسيط حياة الناس الداخلية بالاغضاء عن المحن النفسية والهموم ، وأيا كان شأن الكاتب ، كبيرا أو صغيرا ، فعليه أن يصف الانسان لا شبح انسان فلا يكون الوصف سوى رسم تخطيطي عنه •

قرأت بعد الحرب ، بعض الروايات الفرنسية التي كتبها أدباء موهوبون ينتمون الى المجتمع البرجوازي • وكانت هذه الروايات تحملني حينا على الضحك وحينا آخر على الغضب ، ولكنها لم تكن من النوع الذي يؤثر في المرء • وهي تستجيب للتصميم التالي : الفصل الاول ، يقابل البطل البطلة • الفصل الثاني ، البطل يشك في البطلة • الفصل الثالث ، البطل يقابل البطلة ويكف عن الشك فيها • الفصل الرابع ، البطلة تشك في البطل • الفصل الخامس يتقابلان ويكف كل منهما عن الشك في الآخر • الفصل السادس ، يعاود الشك البطل • الفصل السابع ، يعاود الشك بدوره البطلة • الفصل الثامن ، يلتقيان ويستمر كل منهما يشك في الآخر ... الخ •

ما الذي أثار في الضحك والغضب ؟ أهو الموضوع ؟ كلا • ورغم ما خصوا به الحب من روايات شيقة فقد ظلوا أبعد من أن يحيطوا بكل ما ينطوي عليه هذا الموضوع • كنت أقرأ بسرور رواية تتحدث عن الحب المعاصر بشكوكه ومشاكله كما أنها تتحدث عن السعادة أيضا • ان الرواية البرجوازية السائرة في طريق الانحطاط ، لهي رواية رديئة لاننا لا نعثر فيها على كائنات حية • ما الذي صنعه البطل بين موعدين مضروبين ؟ لا بد أن له حرفة ومشاغل وهموما وأصدقاء ، لا ينبغي للبطلة أن تعيش فقط في خضم شكوكها الغرامية • ولكن القارىء يجهل كل شيء عن حياتها وعن عملها وعن وسطها ، وهكذا يصبح الابطال بالنسبة اليه ، آلات حاكية قادرة على التنهد والعناق والكلام ولكنها عاجزة عن الاحساس والشعور •

يجب على الرواية أن تبرز عظمة الحب ، ولكن الحب ، يخطئها عندما يخطئها أن تضم بين جوانبها كائنات حية •

حذار من النمطية

لدينا كتب قيمة يترقبها قراء الغرب اليوم كما يتنسم الناس نفحة من الهواء النقي وهم في منجم متداع • ولم تكن الرواية الكلاسيكية الروسية رواية صالون أو مخدع • وقد أدخلت المرحلة السوفيتية الى الادب الروسي موضوع العمل الخلاق • انه موضوع من أنبل وأسمى ما عرف • ومن الممكن أن يصادف المرء في هذا الميدان الاخفاق الناتج عن التبسيط والنمطية • قرأت ، منذ زمن قصير ، رواية لاحد المبتدئين • واليكم قوام الرواية : الفصل الاول ، ايفانوف يتخيل طريقة جديدة في العمل • الفصل الثاني ،

بتروف يشك في طريقة ايفانوف . الفصل الثالث، ايفانوف يدلي ببراهينه محاولا اقناع بتروف بصحة طريقته . الفصل الرابع ، لا يزال بتروف ، رغم ذلك ، فريسة للشك، الفصل الخامس ، أحد الرفاق المركزيين في المنطقة يشارك ايفانوف في مشروعه . الفصل السادس ، بتروف يفضي بشكوكه الى الرفيق المركزي . الفصل السابع ، الرفيق المركزي يوفق بين ايفانوف وبتروف .. الخ .

ليس لدي اعتراض على مضمون الرواية ، فكل ذلك يمكن أن يحدث في عالم الواقع . ان العمل يحتل مكانا متزايد الاهمية في حياة الناس السوفيتيين ، وطبيعي أن يستثير ابتكار ايفانوف دهشة الكثيرين من الناس . نحن نعلم أنه ليس باليسير ادخال الجديد الى مختلف الميادين ، سواء أكان ذلك في مجال الميكانيك أم مجال الادب . وبذلك ندرك تماما أن فرضية ايفانوف لن تلاقي ، لاول وهلة ، الموافقة الاجماعية. ان الانسان السوفييتي المتمثل بايفانوف لا يستسلم وانما يروم انتصار الحقيقة . ليس ما يؤخذ على الرواية هو تصميمها وانما يؤخذ عليها أنها ، في مجموعها ، لا تعدو أن تكون تصميما فحسب . ان القراء لا يقعون على ما يجري للابطال بين اجتماعيين يتعلقان بالانتاج . يمكن أن يكون أيضا ايفانوف متزوجا ، ويمكن أن تكون زوجته قد دعمته في عمله ، ويمكن أن يكون رجلا بائسا في حياته الخاصة . ويمكن كذلك أن يحب بتروف الموسيقى ويمكن أن يرد عدم ثقته الى وهم استقر في نفسه ، وقد يكون الرفيق المركزي قد ولد مريضا مرضا خطيرا . ان للناس حيوات معقدة ، فعندما نقتلعهم من بسطة هذه السعة التي تلفهم يتراءون للقارىء وقد تجردوا من الحياة ، وبذلك لا يثق القارىء باكتشافاتهم ولا بشكوكهم ولا بعملهم .

يسمون الكتاب مهندسي النفوس البشرية . ان هذه التسمية تلزم الكاتب بأمور جمة . هل يمكن أن يقتصر عمل الكاتب على القيام بدور المهندس ، وأن يوقف الرواية بكاملها على وصف تطور الانتاج ؟ لقد كتبت الي فتاة عن رواية انتهت من قراءتها تقول: «ان وصف الترسانة قد راق لي كثيرا ولكن ، لماذا لا يبرز لنا الكاتب « ن » المعني بأشياء كثيرة تعرض في عصرنا ، أولئك الاشخاص الذين يقومون بها » . لقد تطور القارىء فهو لا يبحث في الكتاب عن الصور الخارجية الملازمة للاحداث فحسب وانما يستقصي الافكار والعواطف العميقة ، وهو يرتجي أن تقدم هذه الفترة العظيمة أدبا رفيعا ساميا .

ان الفن الرفيع لا يعكس الحياة فحسب وانما يعمل على تطويرها بمشاركته فيها . منذ قرون و « ايدو الجو المانشي » يجوب العالم ، ومنذ عصور وهملت يعذب نفسه. ان ما يميز فترات ازدهار الفن لا يكمن في أن الكتاب يخلعون على أبطالهم أسماء كائنات حية مثلا ، بل الامر على النقيض ، فهم يضعون على الرجال الحقيقيين أسماء الشخصيات الاسطورية . أولم توجد قبل غو غول شخصيات أمثال « مانيلوف » أو « سوباكيفيتش » أو « نودرييف » ؟ لامراء في وجود أمثالهم ، بيد أن وجودهم مشوب بالغموض وليس في مكنة محيطهم أن يميزهم بدقة . ما الذي حدث بعد ظهور رواية « الارواح الميتة » ؟ لقد بدأ الناس يقولون : البارحة صادفت شخصا ، انه ما نيلوف حقيقي . وآخر يقول : انظر هاهو نودرييف . ولنذكر ، بجانب ذلك ، ظهور « تشاسكي » . لم يكن لدى أي انسان مثل هذا الانموذج ليطلب من الكاتب غريبيدوف ابرازه ولكن شخصية تشاسكي تغلغلت بعمق في حياة المجتمع الروسي . ان محضر ضبط ينظم بوقوع حادث يتراءى،في أغلب الاحيان، بعيدا عن احتمال التصديق واختزال محادثة حقيقية بفقدها روحها الواقعية . ولا شيء يبدو خياليا أكثر من رسوم الهوية ومع ذلك فنحن نؤمن بواقعية نماذج غويا وغوغول .

في الشكلية

أشعر أن عصرنا لم يوجد بعد الشكل الجديد الخاص بالمحتوى الجديد . وينسبون ، في بعض الاحيان ، الى البحث عن الشكل صفة الشكلية . أما أنا فأرى أن الشكلية هي انسان مجرد من الثراء الداخلي ، يتقن الكلام وليس لديه ما يقوله . يمكن أن يستعمل المرء شكلا قديما في الاداء ويؤثره على شكل جديد غير مألوف . ومع ذلك فلا يزال معدودا من الشكليين . وخلاصة القول أن الشكلية ليست في الحرص على الشكل وانما تتميز بفقدان المحتوى.

ان الرواية الكلاسيكية المفضلة كانت رواية شخص أو عائلة وذلك ما كان يقرر شكل تركيبها : أما اليوم فجذور الانسان مشدودة الى أصول عدة . ان تاريخ فرد واحد يصبح بصورة الزامية، تاريخ عدد من الناس وبالتالي تاريخ مجتمع كامل . وعلى الكاتب أن يلبس المحتوى الجديد شكلا قشيبا يلائمه . لنأخذ مسرح التراجيديين القدماء المتميز بوحدة الزمان والمكان، لقد انتهى الى اقرار تتابع في المشاهد وضع خصيصا ليتفق وأذواق ذلك العصر . ان أحد مبدعي

الرواية الاجتماعية في الغرب ، أميل زولا ، لم يكن راضيا عن تأليف بلزاك القيم ، فالتمس مدى لمطارح عينيه أوسع وأرحب كما التمس تتابعا في المشاهد أسرع من ذي قبل . واعيد واكرر بأنه ليس بمة وصفات عامة ، فكل مؤلف يلتمس شكلا خاصا به . وعلى الكاتب الناشيء الذي يميل الى التراث الذي تركه السلف أن يتتلمذ على أساتذة شيوخ، ولكن ليس بمستطاعه تقليدهم .

وما أقوله عن الكتابة يمكن أن ينطبق على الايقاع نفسه . فهناك الاسلوب الشيق المدهش ، أسلوب تولستوي، وهناك أسلوب تورغينيف أيضا . ان لغة رواياتهما لاتبدو لنا غنية فحسب وانما تبدو نابضة جياشة بالحياة . ومع ذلك فالايقاع قد تبدل، واذا رأينا أبطال الرواية السوفيتية يلقون ببطء قطعا نثرية طويلة ، فما ذلك بأسلوب وانما هو تقليد للاساليب .

لدى قراءتي مخطوطات بعض الناشئين روعني فقرهم بالمفردات ، فبعض منهم لا يكتب بلغة روسية وانما يكتب بلغة خاصة وهي لغة رديئة من لغات الصحافة حظها ضئيل من الكلمات ، أضف الى ذلك أنها جافة وعاجزة عن الاداء وشبيهة باللغة المسماة « الاسبيرانتو » . يمكن لمثل هـذه اللغة أن تستعمل للتعبير عن أفكار بسيطة في الحيـاة اليومية ، ولكن ليس بالوسع الاستفادة منها لكتابة رواية مثل « بطل من عصرنا » أو قصة قصـيرة من قصص تشيكوف . وقد حاول بعض الكتاب الناشئين أن يداروا فقرهم بالكلمات فلجأوا الى استعمال الالفاظ الطنانـة ذات الصيغة التفضيلية وكذلك صيغ المبالغة . وهذا ما يذكرني بأبطال المعارض الذي يرفعون أثقالا من الورق المقوى كتب عليها (١٠٠ كيلو) ان مثل هؤلاء يخطئهم معنى وطبيعة الكلمات وقد سألت كاتبا مبتدئا : قل لي أيهما أجزل وأمتن أقولك : « أحبك » أم قولك « أحبك كثيرا »؟ فأجاب على الفور ودون تردد : « من المؤكد « أحبك كثيرا »» ... واني لاشعر بأن أية قارئة ، مهما يكن نوعها ، تستطيع استظهار معنى الكلمات بأفضل بكثير من هـذا الشاب ، مؤلف قصتين أو ثلاث حتى ذلك التاريخ .

« الالتزام » في الفن

أود أن أتحدث أيضا عن الالتزام في الفن . فأنا أعتقد أن الفن كان ينزع دائما منزعا خاصا لانه يعبر عن الحب والحقد والغضب والحنان والامن وارادة الرجل الحي.

والفنان يعدل في النسب فيبرز بوضوح الالوان ويشير الى بعض الجزئيات ويهمل أخرى، وعلى مؤلف الرواية أن يحيط علما بحياة أبطاله منذ طفولتهم حتى مرحلة الاحتضار ولكنه لا يرسم ذلك الوجود يوما تلو يوم ، وانما يتخير ما هو ضروري لتحقيق فكرته .

منذ خمس سنوات اجتمعت الى أحد كبار الفنانـين الفرنسيين القدامى وهو « هنري ماتيس » وتكلمنا عـلى الالتزام في الفن . وكان ماتيس يتألم وهو يعمل نصف نائم فطلب الى سكرتيرته أن تحمل اليه فيلا فحملت اليـه تمثالا نحته أحد السود وكان الفيل ممثلا وقد ارتسمت عليه أمارات الغضب ، وسألني ماتيس عما اذا كان التمثال يروق لي فأجبت بالايجاب . فسألني أولا تجد فيه شيئا غير مألوف ؟ فأجبته : كلا فقال وأنا أيضا ولكن أمعن النظر جيدا فليس خرطومه مرتفعا فحسب وانما نيوبـه مرتفعة أيضا ولقد جاء أحد السخفاء وقال للمثال : ان الاسنان الامامية لا يمكن أن تبدو مرتفعة وقد أطاع المثال ذلك ثم طلب الى سكرتيرته أن تحمل تمثالا آخر ، وقال :

ألا ترى أن الاسنان ، هذه المرة واقعة في مواضعها ، ولكن ليس في التمثال شيء من الفن .

ان كتبنا مدعوة لان تطور الحياة ، وهذا ما يتمه الفن الحقيقي لا بديله ، ان الرجال العظام الذين سبقونا قد تركوا لنا ما يلهب القلوب بالكلمة . ومن أجل ذلك لا يكتفي الكاتب أن تضم جيبه بطاقة العضوية في اتحاد الكتاب بل ينبغي أن تنطوي جوانحه على قلب نابض ، وبالتالي يجب أن يكون أديبا .

موعد في الساعة السابعة

سهام عبد الهادي

يوم كسيح آخر يقتحم باب غرفتي ٠٠ خطوات وجلى تدب في الممر علها تريد أن تطرق بابي ٠٠ تمر ٠٠ تمر ٠٠ تتجاوزني الى رقم آخر في الممر الطويل ٠

مجموعة من المدرسات ينتظمن في شعور مستعارة ٠٠ يذهبن الى فيلم في دور السينما ٠٠ عيون مطفأة حزينة تخفي خلفها ألف حكاية وحكاية ٠٠ ابتسامة مريرة تلوح على الشفاه تقنع بؤسا كامنا في القلوب ٠

واحدة منهن تسير بذهول مستمر ٠٠ نحيلة ضئيلة ٠٠ عيناها جاحظتان متهدلتان أخفق الكحل الصارخ في اخفاء تجاعيدها ٠٠ شعرها أشيب رمادي أغتال الزمان أكثره ٠٠ بشراسة وعناد غريبين تأبى أن تصبغه ٠٠ شفتاها مطبقة بحزم لا تطرح السلام ٠٠ واذا تكلمت شتمت :

« الكلب طلقني بعد اسبوعين ٠٠ الله يعلم كم أحببته يا أولاد ٠٠ النذل تزوجني على طمع ٠٠ سرق تحويشة العمر وهرب ٠٠ » !

واحدة أخرى تتظاهر بالتقوى لتثبت للملأ أنها انسانة طيبة درويشة نظيفة ٠٠ لا تصمت عن الغيبة الا حين تعانق سجادتها ٠٠ ترمي كل مدرسة بنظرات شزراء محمومة تتفجر حقدا وغيظا ٠٠ لا تمدح الا خصالها وطيب أفعالها ٠٠ وتسلق ظهر من يحاورها أو يؤانسها ٠٠

ثلاثة منهن ٠٠ ثلاثي غير مرح ٠٠ وقف على عتبة الاربعين بأسى بالغ وحزن عميق ٠٠ يجلسن معا ٠٠ يقمن معا ٠٠ كالغزالات الثلاثة في قصص الاطفال ينسجن «التكايا» والحكايا ٠٠ يتناولن طعامهن على طاولة واحدة حديثهن همس أجش دائب لا يروق سميرة ٠٠ مع طعامهن يزدردن لقمات هائلة من النميمة يصببنها على من حولهن من المدرسات ٠

واحدة أخرى بيضاء جميلة ممتلئة ٠ جريئة الى درجة مريبة ٠٠ معتدة بنفسها الى درجة مذهلة ٠٠ حين تمشي تدق الارض بتحد وخيلاء ٠٠ أكثر ما يميزها صوت هادر فاجر يرعد في المطبخ والممرات يتحاشاه الجميع ٠٠٠ فيه بحة مطربة مغناجة تستعرضها عند كل حديث ٠٠ تركت زوجها وأولادها للكسب الحلال ونذرت نفسها للتقشف ، فتقشفت وتقشفت حتى باتت « حريفة » تقشف ٠٠ تصاحب كل غرة ساذجة تجد عندها مكسبا طيبا حتى اذا ما وجدت من أدسم منها تركت الاولى والتصقت بالثانية بذكاء وقح شرير يعرف من أين تؤكل الكتف ٠٠ وهكذا كانت تنتقل في السكن من صيد الى صيد حتى باتت تحمل لقب «الصياد» ٠!

سميرة مدرسة جديدة بينهن تخرجت حديثا من الجامعة ووجدت نفسها تعيش وسط مجموعة متنافرة غريبة من

البشر ما تعودت أن ترى مثلها في رحاب الجامعة أو حرم الثانوية .. التزمت بغرفتها وأصابها رعب هائل من نظرات زائغة قلقة من قبل مدرسات عتيقات فآثرت العزلة واقتصرت على صحبة الكتاب وسماع رفيقة العمر « فيروز » تشدو بصوتها الملائكي العذب فتؤنس وحدتها وتذيب الصقيع الزاحف على حياتها ..

لم تطل وحدة سميرة حتى التقت بمجموعة نضرة عطرة من المدرسات الشابات ، ما زال نبض الحياة يتدفق حارا في عروقهن . ما زال فتى الاحلام رشيقا أنيقا يداعب مخيلتهن فيشيع في عيونهن شعورا من الرضى والبهجة والسعادة .. نفوسهن صافية رائقة تنضح بالخير والعطاء والمحبة .. يغنين أبدا .. يمرحن يرقصن .. يضربن أجمل المواويل وأعذب الالحان الشرقية والغربية في المطبخ « الصالون » الواسع العريض ملتقى تجمع النحلات العاملات بين القدور التي تغلي وتفور .. ولا بأس من « فتلة » جيرك في « بيست » المطبخ بين الطاولات العتيدات .. أو رقصة بلدي تؤديها نحلة فرحة مرحة على طاولة ضخمة عتيقة وهات يا رقص على « واحدة ونص » بين الهرج والمرج والتصفيق والزغردة والولولة ريثما تنضج الفرخة الشهية الطرية المتربعة باياء فوق عرش ـ بوتوغاز ـ شاب نشيط تنفث شرايينه لهيبا متأججا لا تنطفيء حدته الا حين توشوشه حبيبة من صديقاته فتسكن جمراته ويهدأ أواره ..

انخرطت سميرة مع مجموعتها انخراطا تاما لاتفارقها الا حين تشتاق لاصحابها القدامى فيروز والكتاب .. أما شلتها فيكفيها التدريس وتصليح الكراريس وفلقة الرأس في الصباح مع الطالبات ويا ليل ويا عين وغدا القاك وأنت عمري في المساء .

كانت سميرة فتاة سمراء جميلة .. سمرتها مشوبة بحمرة حلوة محببة .. طويلة أنيقة ممشوقة القوام تملك نفسية مرحة منبسطة على جانب عظيم من الذكاء والجاذبية .. عيونها سوداء واسعة من ذلك النوع اللامع الذي يستقطب كل حركة ويحس كل نأمة فيبتلعها ويختزنها في جوفه يخشى أن يبوح بها لانسان ..

أحبتها تلميذاتها ووثقن بها .. الواحدة تلو الاخرى .. جاءتها تلميذتها يوما « أرجوك يا ابله ساعديني .. أبي يريد أن يزوجني من أحمد ابن أخيه .. هذا الثقيل الاصلع .. عمره ثلاثون عاما .. لا أطيقه .. أحب ابن الجيران ـ وسيم ـ في الصف الثالث الثانوي مثلي يا أبله .. شعره أملس جميل خنفوس ـ ليتك ترينه ـ أعلم لماذا يريد أبي أن يزوجني ، لانه من ذلك النوع الذي يعتقد أن البنت اذا تجاوزت العشرين بارت وأصبحت في عداد العوانس يا لطيف .. زوج أختي في الثالثة عشرة من عمرها .. وأنا يعيرني بأني بلغت السادسة عشرة ولم أتزوج بعد .. هل أنا عانس يا أبله ؟.. اذا أصبحت عانسا سأبحث بنفسي عن عريس » .

ومادت الارض تحت قدمي أبلتها .. كلام الصبية الجريء أثار مواجعا كامنة في قلب سميرة ..

كنت أجمل من تلميذتي وأذكى .. كنت محبوبة من قبل الاهل والجيران .. يتعلق بي الصغار والكبار على حد سواء .. عندما كنت أسير في الشارع كانت تلتفت نحوي الرؤوس .. والتعليقات المحمومة تفرقع حولي في الهواء تطلقها أفواه الشبان الجائعة الملهوفة لنظرة .. لابتسامة ..

« يا أسمر ... يا سكر .. يسلم لي هذا الطول .. دخيل الله على الشعر والخصر و .. الخ . »

لم تهزني هذه التعليقات يوما .. لم التفت اليها .. بقي الكتاب صديقي الحبيب المصطفى بين البشر والمكتبة مهواى .. الى أن التقيت بك يا عصام وأحببتك .. لعلك كنت بالنسبة لي الوجه الآخر للكتاب .. كنت عميقا ناضجا مرحا باتزان .. مثقفا يحلو لي أن أغوص في بحر ثقافتك واتهادى بحنان على موج أشعارك العذبة ترسلها عقودا من ماس أحلى ما زين صدري وعانق جيدي ..

كانت عيناك حولي تحرسني تؤنسني من بعيد ... بدأت تتقرب مني شيئا فشيئا .. تتلهف لمساعدتي اذا ما طلبت مصدرا من أمين المكتبة فتسارع بالبحث عنه ... واذا ما أردت الكشف عن كلمة ما في المعجم كنت السباق لمساعدتي ونجدتي ..

كانت المكتبة مسرح هوانا العف ... موطن الفكر والفن ، الهواء النظيف الذي يعبق بأمجاد الماضي وعباقرة التاريخ ..

كنا لا نكاد نفترق حتى تتصل بي بالهاتف .. يأتيني صوتك عبر الاثير قويا عميقا حنونا تحمله الي آلة سوداء باتت حبيبة الى نفسي قابعة في ركن البيت هادئة ساكنة تزغرد حين تناديني .. كان لسانك ينطلق على الهاتف فتقول

ما يمنعك الحياء من قوله حين تراني ·· كلماتك يا عصام محفورة في رأسي : « يا سميرة يا عمري ·· أنت حلوة لذيذة كقطعة السكر ·· أحب قدمك الصغير الانيق ·· تاج على رأسي ·· وحدك سيدتي حبيبتي بين نساء العالم » ·

وخطبها من ذويها ·· وطار قلب سميرة فرحا وهي ستقترن بفتى أحلامها ورفيق صباها ·· ولكن سميرة فوجئت برفض قاطع من أهلها لعصام ·· هكذا بحزم وقسوة ·· فعصام لا ينحدر من سلالة الدم الازرق على حد تعبير ذويها ·· كان عصام ابن اسرة ريفية فقيرة بسيطة عمل أبوه على تعليمه وتثقيفه ·· بعد ذلك شق عصام دربه بيديه كعصامي كادح من أهل الوطن يجمع بين الدراسة والعمل ليؤمن قسط الجامعة وثمن الكتب ·

سميرة تنحدر من أسرة عريقة غنية ذات جاه طويل عريض ·· باتت اليوم مفككة تعلك أمجادا مهترئة قديمة تحصيها بتلذذ مع حجارة الشطرنج ·· وتتطاول بها على مخلوقات الله ···

لم تدر سميرة لماذا تقف في صف حبيبها ·· لم تدافع عن حبها وقلبها ·· استكانت بخنوع ، رضخت بمذلة للفرمانات التركية الغبية الصادرة في البيت ·· شخصيتها القوية بين الناس كانت أشبه بقشرة جوفاء رقيقة تخفي طيها شخصية أخرى ضعيفة مترددية متهاوية لا ترفع صوتا ولا تلقى اعتراضا ·

تركت سميرة حبيبها وحده في الميدان فانهزم وارتحل الى أوروبا في بعثة تعليمية هناك ··

سكنت صاحبتنا في غرفتها ·· لم تستفق الا على صوت واحدة من شلتها العطرة المرحة تغني : « وحداني حعيش كده وحداني ·· خدني معاك يللي أنت مسافر خذني معاك ··· » ثم تصمت لتتابع بعد قليل كلامها في زعيق فرح مزقزق : « خلاص يختي ما بقاش وحداني » ·

سعاد زميلتها الحلوة مدرسة العلوم وصل اليوم جواب من خطيبها في ألمانيا يزف اليها بشرى النجاح وانه تخرج هذا العام من كلية الطب وبقي له عام آخر للتدريب وسيعمل هناك لبضعة أعوام آخر وهو يطلب من سعاد أن تستقيل من عملها لتلحق به حالا ليقضيا أشهر العسل وسني الحلاوة ··

« دكتور قد الدنيا » قالت سميرة في سرها ·· يحق لسعاد أن تفرح ·· لكنك يا عصام أعظم من أي دكتور أو مهندس أو محام ·· ليتك تعلم الان كم رفضت من الخطاب من أجلك ·· ثارت لضعفي لتهاوني ·· آمنت بالحرية الشخصية والعدالة والمساواة مبادئك يا عصام ·· لن أتزوج رجلا لا أحبه ثم أبيعه جسدي بين جموع الناس المكبرة المهللة للستر الحلال ·

أنت أعظم من رأيت يا عصام ·· لم ألتق بمثل شخصيتك ·· نضوجك ·· عمقك ·· حنانك ·· أين أنت يا عصام ؟·· أوتتركني وحدي أبحث عنك كما قالت تلك الشقية الصغيرة ·· من يدري لعلك الان في أوروبا تتقلب بين أحضان فاتنة شقراء من فاتنات الشمال ·· سمرتي الداكنة ما عادت تستويك ما عادت تلهب قريحتك تستثير وجدانك ··

شيئا فشيئا بدأت الابتسامة الحلوة تغبض من وجه سميرة تفارق محياها ·· الجليد القاسي بدأ يزحف على حياتها ·· الصقيع البارد يبطن أجواء غرفتها ·· هدوء قاس مرير يكتنف نهارها يلف ليلها ·· شلتها الحلوة بدأت تخطب تطير ·· ابن الحلال يخطفها على جواد أبيض جميل ·· حتى أصحابها الخلص رفقاء العمر : أبو تمام البحتري فيروز : كلهم ما عادوا ينتشلونها من وحدتها ·· وتعليقات جارحة من زوجة عمها المرحوم تطحن عروقها ··

كانت هذه العجوز امرأة غريبة عجيبة ·· كتلة من شر محض دون بارقة من خير ·· لسانها سليط كالمبرد تكوي به من يقربها أو يتجرأ على مسامرتها سيما اذا لمحت في محدثها بوادر ذكاء أو شخصية قوية أو نسبا عريقا يتحدى عراقة أصلها وكريم محتدها ·· عندئذ تستشيط غضبا وتتمزق حقدا فتأكل بعضها بعضا وتلسع لسعات طائشة سريعة متلاحقة تحاول بها أن تدمر محدثها أو تنسفه علها بعد ذلك تهدأ أو تستريح ··

كانت امرأة عمها عربون صدق على فساد الدم الازرق المتعفن في الاسرة العريقة النبيلة ·· قوام شخصيتها هوى جارف لحكايا الجنس ·· تجن بحكايا الجنس ·· مهووسة جنس ·· والالفاظ السوقية البذيئة تنثال أبدا على لسانها بتلذذ وسخاء وكرم تعتبره مصدرا من مصادر اعتزازها ··

كانت تلك العجوز لا ترى سميرة الا وتسلقها بألسنة حداد ، وتنغزها نغزات تحاول أن تكون طبيعية غير متكلفة كأن تقول مبتسمة ابتسامة مرعدة :

« يا عيني يا سميرة ٠٠ اسمعت يا بنتي ؟٠٠ مش بنت المهندس علي صاحب العمارات الكبيرة في شارع خالد بن الوليد بقى أبوها يعلمها ويعلمها ويرفض خطابها حتى بارت يا كبدي وراحت عليها ؟٠٠ وأقول لك أيضا مش بنتي الصغيرة الصغيرة سافر زوجها الى باريس وغاب اسبوعين كادت تجن بغيبته وجننتنا معها ٠٠

أصل المرأة المتزوجة لا تستطيع أن تبقى يوما واحدا بدون زوج ٠٠ وما قيمة المرأة عموما بلا رجل يؤنس وحدتها ويملأ حياتها ؟٠٠ »

وترفع العجوز حاجبيها وتنظر بطرف عينها الصغيرة السوداء المستديرة الحادة كعين الديك من خلف منظار طبي سميك لترى وقع كلامها على سميرة بينما أصابعها تضغط بشدة تفرقع حبات سبحتها ولسانها يتمتم بعصبية مكبوتة : يالطيف يا لطيف يا لطيف ٠٠

وبين الحين والحين كانت تختلق نكتة بذيئة من محفوظاتها الجنسية القديمة ـ رأس مالها في الحديث تصمت لو تاهت عنه ـ تطلق نكاتها معربدة في الفضاء ثم تضحك وحدها ضحكات منغمة رعناء يهتز لها اللحم المكتنز وتحمل في طياتها انفعالات ابن العشرين بكل ما يملك من نزق وطيش شباب وطاقات غريزية حادة لا يستطيع كبتها ٠

وتصمت سميرة لدى هذه التعليقات صمتا مطبقا ٠٠ ويعتورها ضجيج في رأسها بينما ينبثق أمام ناظريها خاطر عنيد غريب كانت تحاول جاهدة أن تطرده عن ذهنها ٠ وكلما ألحت في صرفه الح في المثول قويا جريئا متحديا ٠٠ خطر ببالها يوما أن زوجة عمها المرحوم تشتهي الرجل ٠٠ تتمنى عريسا لنفسها في سن ابنها أو ابن ابنها لا يهم ٠٠ والا لما شغفت بحكايا الجنس ، والا لما شذت عن لداتها العجائز الطيبات اللواتي لا يرين الصبايا أو الشابات حتى يغمرنهن بفيض من الحنان الممتع اللذيذ ، من نظرات هادئة وادعة حانية تحمل حكمة الدهر وخلاصة التجارب في الحياة ٠٠ من كلام حلو جميل يتدفق كالعسل ٠٠ من دعوات صالحات طيبات تسعد القلب وتنزل على النفس بردا وسلاما ويقول المرء لدى سماعها « هل من مزيد ؟ »

في يوم من الايام رن جرس الهاتف في المدرسة :

« واحد يطلب سميرة ٠٠ يا عيني يا بنات انشاء الله خير ٠٠ » وتغامزت المدرسات ٠٠

كان عصام على الهاتف يطلب سميرة ٠٠ يأتيها من خلف ضباب الايام وقهر السنين ٠٠

« سميرة عدت توا من أوربا ٠٠ يجب أن أراك على باب سكنك في الساعة السابعة ٠٠ وهل تنسين السابعة يا سميرة ؟٠٠ انها في دمي وتحت مسامات جلدي » ٠

تساقطت السماعة من يد سميرة ٠٠ وتهاوت على أول مقعد وجدته أمامها ٠٠ وقد عقدت المفاجأة لسانها ٠٠ وخفق القلب المحروم بشدة ٠٠ وتسارعت نبضاته الحزينة الكسلى تعوض ما فاتها من طول ركود وفتور ٠٠

ذهبت سميرة الى غرفتها ٠٠ تتزين ٠٠ تتعطر ٠٠ العطر الفاغم الذي يحبه عصام، تسرح الشعر الناعم الجميل الذي طالما احتواه بيديه الراعشتين ٠٠ تتحسس الشفتين اليابستين ٠٠ تكتحل ٠٠ تشد الحزام على الخصر الاهيف والقوام المشيق ٠٠ تتفرس وجهها في المرأة عل الزمان كان رحيما في ترك بصماته ٠٠

في الساعة السابعة كانت يد عصام تضغط على يد سميرة بشدة ٠٠ وكفها الصغيرة تغوص في أعماق كفيه الريفيتين الكبيرتين ٠٠ وعيناه الحانيتان تنغرزان بتعبد وخشوع في الوجه الندي الصبوح ٠٠

بصعوبة تلكأت الكلمات على شفتيه :

« يا عمري يا سميرة ٠٠ لكأني فارقتك البارحة ٠٠ كل ما تغير فيك أنك ازددت نضوجا وجمالا وبهاء » ٠

كانت سميرة تسير مع حبيبها في الطريق بينما كان العجوز الطيب حارس المدرسة يغمغم بكلمات في سره :

« يا ابنتي الطيبة تستحقين كل خير ٠٠٠ »

سهام عبد الهادي

جولة في حدائق الدكتور أسعد علي

بقلم عفيفة الحصني

ان من يطوف في حدائق د. أسعد علي يشعر بجاذبية أخاذة لاقتطاف ما فيها من ألوان الثمار الحلوة اليانعة ، والازهار الجميلة الزاهية ، والرياحين الرقيقة ، والورد العاطر ، والزنبق الطاهر ، والفل الآسر ، والقرنفل الساهر ، وما الى ذلك من الوان المتعة والفكر والجمال ..

يجد في هذه الحدائق غذاء للروح في كتاب « معرفة الله » واذكاء للطموح في كتاب « المرأة في القواعد » وتوجيها نبيلا للمستقبل في كتاب « الانسان والتاريخ في شعر أبي تمام » ورغبة في خدمة الانسانية ورفع البشرية الى افاق المثالية وأجواء السلام والمحبة في كتاب « فن المنتجب العاني» وتفجيرا لطاقات الثورة ضد الاعداء ولمواهب الفرد لتحقيق التوحيد والوحدة في ديوانه « العاصفة » . واعتزازا بالعروبة ووحي الصحراء واشراقها في قصيدة « أسطورة الصحراء » ، وسموا بالحب الى العالم الروحاني المطلق.. واختراقا للحدود الى عالم الاتصال حيث « لا موت .. لا خيال »(١) وحثا للهمم والعزائم لتحقيق الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية وامتلاك الطبيعة بالمعرفة وتسخيرها لخدمة الانسان في مقاله .

« تربية ستمائة مليون حكيم » المنشور في مجلة الاداب اجنبية العدد (١) السنة الثالثة .

كما نجد في هذه الحدائق دروسا رائعة في تعليم اللغة بطريقة ممتعة تجعل القواعد الجافة شهية جذابة وذلك في برنامجه الاسبوعي الاذاعي « اللغة والحياة » .

ليس في حدائق د. أسعد علي نبات طفيلي ، أو حصاد هشيم كل ما فيها رائع ومغذ ومفيد يرتاح له العقل والقلب والسمع والبصر ... حتى الصبار في بيداء د. أسعد علي له طعم آخر يحث على الجد والعمل والايثار، ويحذر من التراخي والكسل والانانية والاتكال « البداوة المنقذة »(٢) .

قرأت بعض كتبه المطبوعه فتشوقت للاطلاع على سائر كتبه المخطوطة التي يبلغ عددها أربعمائة كتاب ترك جلها في مكتبته ببيروت حفظها الله وحماها من كل سوء لانها كنز نفيس، ماأحوجنا اليه في هذه الحياة التي أصبحت متحجرة غارقة فيجحيم المادة وظلام الانانية الى أقصى حدود الغرق .

ان كل ماكتبه د. أسعد علي جديربالدراسة والتحليل لتغذية الروح والتحليق بها الى العالم النوراني حيث تتحرر من كثافته المادة وتعيش في جو تشيع فيه المحبة والطمأنينة والالفة والتعاون ، والانكار للذات ، والابتكار والتجديد في العمل والبناء . ولكن هذه الدراسة تحتاج الى مجلدات ضخمة وسنوات دراسة طويلة وتحليل عميق ، ولهذا أكتفي بهذه الكلمة الصغيرة باختيار زهرات فواحة من ربيع كتابته الزكية العاطرة مرددة قول الشاعر :
« ان الربيع ببعض العطر يختصر » .

كنت أقرأ مرة - في فترة الاستراحة بين مراقبتي الكفاءة والبكالوريا مقالا للدكتور أسعد علي بعنوان « القراءة مثل الشمس عالم حرارة واضاءة وحياة » نشر في ملحق الثورة الثقافي العدد الثالث عشر بتاريخ ٦/٣/ ١٩٧٦ ، فاذا باحدى الزميلات من مدرسات الادب العربي تخطف مني الصحيفة وتقول : « ما أجمل هذا الكلام » .

وهي فتاة رقيقة على جانب كبير من الذوق واللباقة ، ولكن اعجابها بالمقال جعلها تنسى الاستئذان مني قبل خطف الصحيفة ، وآثرت أن تسبقني في قراءة هذا المقال قبل أن أتمه . ولو خطفت مني حلوى لذيذة أتذوقها ما تضايقت أبدا ، ولكن خطف هذا المقال الذي كنت مستغرقة في تذوقه جعلني في ضيق مرير ، دون أن أشعرها بذلك ، مدة ساعتين ريثما أعادته الي بعد فترة المراقبة .

ان كل جملة في هذا المقال بل كل كلمة تنطوي على معان كثيفة ورائعة في جمال المبنى وجمال المعنى ،وتعطي دروسا في الحياة تتسرب الى الاعماق ، وتنشط الدورة الدموية وتبعث فيها الحيوية والطموح والرغبة في الابداع والاضاءة : يشبه الكاتب القراءة بالشمس التي تغمر العالم بنورها وتحرره من عبودية الظلام ، ويعبر عن هذه الفكرة بصورة غزلية علوية ليس لها أية صلة بالغزل الرخيص المبتذل ، ومن أين يأتي الابتذال والحبيبة هي الشمس المنيرة « داعبت بحنان جبهته ، وأوقدت بحنان مهجته ، فاخضر ربيع الشوق وتفتحت للشروق دروس ومواسم » .

هذه الشمس ، التي يشبه الكاتب بها القراءة ، « في شروق دائم ، لا تغيب الا عن أعين الذين يحتجبون

(١) قصيدة نشرت في مجلة الموقف الادبي العدد ٦١ أيار ١٩٧٦

(٢) محاضرة ألقاها في المركز الثقافي العربي بدمشق بتاريخ ٦/٣/١٩٧٦ .

عن تألقها ، بكثافتهم المادية ، انها تتربع على مشارق الانسان ومغاربه لترتفع مرابع الحضارة ومساكن العمران .. ليكون مجتمع الانسان حقا وخيرا وجمالا وسلاما » .

هذه الشمس أو بالاحرى هذه القراءة ، تنصح الانسان بقولها : « كن رفيقي تصر منبع الشروق في معبد الحب يا انسان » .

وهي « تطوف على نيام الكون لتوقظهم ... انها معلمة الحرارة والاضاءة والحياة » .

وليست كل قراءة شبيهة بالشمس ، وانما القراءة التي تستطيع أن ترتفع الى أفق الشمس وتتشبه بها هي القراءة « الممتلئة حماسة وولعا وصبرا ، قراءة « الجد العاشق والعشق الجاد » القراءة التي « يزود بها القارىء المبدع مجاهل الابداع ويرسم للاجيال مصور الخصب ويبني لعشاق الخصب ومواسم الشروق ، « مراكب الكتابة» التي فيها الحرارة والاضاءة والحياة » .

فهل هناك صورة تشوق بالقراءة والكتابة كهذه اللوحة الفنية الرائعة ؟» .

وقد لخص الكاتب هذا التشويق والاغراء بالقراءة والكتابة بقوله : « فمن يقرأ في بلادنا هذه القراءة ؟ ومن يكتب بهذا المستوى من حرارة الابداع واضاءة الحب وحياة المعرفة ؟ » .

لم ألم صديقتي التي خطفت مني الصحيفة ، وان تألمت من ذلك ساعتين ، فمثال هذا الفن يجعل مقاومة الاغراء في تذوقه ضعيفة لا يستطيع عشاق الابداع السيطرة على أنفسهم دون الاقبال عليه بنهم وشهية .

واني لاشكر تلك الصديقة التي خطفت مني الصحيفة وأثارت في الحماسة لنظم القصيدة التالية :

سحرتها النفحات العبقرية
خطفت مني الصحيفة
ترشف الروح اللطيفة
أسكرتها النهلات الكوثرية
انها مثلي نشوى
ببهاء النور في الفكر العميق
بزغاريد الشروق
في ربى فجر الاضاءة
. . .
خطفت مني الصحيفة
ترشف الروح اللطيفة
أثملتها خمرة سحر حلال
ليس في ذراتها غول ولا تيه الضلال
خمرة الفردوس علم وحياة واثارة
تملا المهجة خصبا وحنانا وحرارة
وبها يخضر ابداع الفنون
فيرينا عالم الاحياء ألوانا بهية
يخرق الافاق يستوحي المعاني الازلية
لمحت منه ضياء
يملا القلب صفاء
في ثنيات الصحيفة
خطفت مني الصحيفة
ترشف الروح اللطيفة

نموذج آخر من حدائق د. أسعد علي يسرني أن أعطر به جو عشاق القراءة .

تحدث د. أسعد علي عن محبة العمل في جريدة الثورة العدد ٤١٢٣ بتاريخ ١٩٧٦/٧/٢٥ ، فأعطانا صورة جذابة عن حب العمل تخجل الكسالى والمتقاعسين ، وتجعل نفوسهم في غليان ، غيرة على الوقت الذي يضيع سدى دون الاستفادة منه في العمل المجدي البناء .

تحدث د. أسعد علي عن صديق « يتعامل مع دقائق الوقت كما يتعامل مع قطع النقد ودرجات السلم » وتحدث عن انجازات هذا الصديق الكثيرة المتجددة ، ذكر أنه يحب الصيد ولكن الوقت الذي خصصه للصيد يستفيد منه في عدة أمور : يستفيد منه في الرياضة الحركية ، والمحافظة على اتزان القامة وهو يسير رافع الرأس مستقيم الظهر ، وعلى تنشيط الدورة الدموية . كما أنه يستفيد من هذا الوقت في التأمل بالطبيعة والامعان في أسرارها فهو يرى صور الطبيعة حول الطريق كمن يقرأ كتابا . وأثناء الصيد ، حين يلقي بصنارته الى الماء ، يقرأ كتبا قد أحضرها معه لئلا يضيع وقت الانتظار سدى .

وصور لنا في هذا الموضوع أيضا حكمة العمل المستمر في الحديث عن فلاح مسن يبدأ مشروع عمل يحتاج الى أحفاد أحفاده لينجزوه . وبين بعد ذلك مثالية التفكير في هذا السلوك . ثم أعطانا صورة بين فيها وجه الشبه بين الزراعة والتعليم وكيف يرد التراب بسرعة أضعاف أضعاف ما يزرع فيه من البذور ، مواسم بعضها للغذاء وبعضها للبهجة ، فبالاحرى أن يرد الطلاب في منازلهم وفي مدارسهم وفي مجتمعاتهم انتاجا مثمرا مغذيا وممتعا ، يحقق النهضة والبناء والتجدد . ويروي بعد ذلك قول الرسول محمد (ص) : « تعلموا ما شئتم فلن يقبل منكم اذا لم تعملوا به ... ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

لون آخر أقدمه من حدائق د. أسعد علي ، وما أجمل ألوان حدائقه وأبهجها .

تحدث د. أسعد علي في جريدة البعث العدد ٤١٢٩ بتاريخ ١٩٧٦/٨/٣ عن الاملاك العامة في سياسة العين والسمع والقلب ، ومحبتها والمحافظة على جمالها ونظافتها وتأدية الخدمات لها ليستمر هذا الجمال وهذه النظافة

سواء فيما تقع عليه العين أو ما تلتقطه الاذن من سمعة حسنة وسيرة ترفع رأس الوطن عاليا .

ان هذه الامور التعليمية والتوجيهية يعرضها د. أسعد علي بأسلوب جذاب يفتح الشهية لالتهام كتابته التهاما : فالحيوية والجمال والمثل العليا تشيع في كتابته وتعطينا دروسا رائعة وصورا ناطقة تثير الاعجاب بها وتغري بالسير اثرها والتشبه بها كقوله : « والاصغاء الى تجربة الطبيعة ومعرفة الكيفية التي تعمل بها يجعل الانسان أكثر شغفا بالعمل ليتغلب على الطبيعة ويتجاوز بنشاطه نشاطها ...

ان الشمس مظهر طبيعي فعال في الحياة ، انها تشرق كل يوم، لا تتأخر عن موعدها، لا تكسل عن النهوض، لا تطلب اجازة مرضية ، ولا تطمح باجازة ادارية ... لماذا ؟ لانها تحب العمل وخدمة الحياة » .

وحدائق د. أسعد علي تشع فيها المثالية في أسمى معانيها ، وبخاصة في موضوعه : « تربية ستمائة مليون حكيم » الذي نشره في مجلة الآداب الاجنبية العدد الاول السنة الثالثة حيث تلمس طموحه ونبل اخلاصه لوطنه وولعه في توحيد الشعوب والثقة بقدرة الانسان على التغيير.

لقد اهتم في هذا الموضوع بترجمة أفكار الزعيم الصيني « ماوتسي تونغ »،وتحليلها ليخلق جوا من التقارب الفكري والحيوي بين الشعب الصيني الذي رباه ماوتسي تونغ على مبادئه الوحدوية النيرة وبين الشعب العربي الذي يطمح ويتمنى أن يحقق أفراده هذه المبادىء . وقد أعرب د. أسعد علي عن هذا الطموح وهذا التمني بقوله : « ما أبهج ذلك اليوم الذي يشرق على العالم العربي كله بنور الوحدة ويطرد غيوم الانفصالية والانعزالية والتجزئة والفردية » . وقوله : « شعرت وأنا أعايش نصوص ماوتسي تونغأنني أعالج آلامي القومية ، وشعرت أن تجربة الصين يمكن أن تترجم الى الوطن العربي بصورة وحدة بين فئات هذا الوطن » وقد عرض د. أسعد علي في هذا الموضوع مواقف ماوتسي تونغ النضالية منذ مطلع شبابه حين كان طالبا يقفمع رفاقه في زمن الخريف يتمتعون بمناظره الخلابة « ويتفجرون حيوية وقوة وتفكيرا وتطلعا الى العمل والجهد ليخصبوا حقول الصين وشطآنها » .

وعلق على هذا الموقف بقوله : « ان التأمل في موقف (ماو) يظهر السر في قدرة الانسان على التغيير » : فالشاعر ماوتسي تونغ « اختار زمنين : الاول من الطبيعة وهو زمن الخريف وبخاصة البارد منه بكل ما يعنيه من أحزان رياحه وموت الخضرة والاوراق فيه والزمن الثاني اختاره من الانسان : انه زمن الصبا ، زمن الحيوية المتفجرة » .

ولكي يبث د. أسعد علي في الشباب الثقة بالقدرة على التغيير يستطرد قائلا : « ومن الطبيعي أن يتغلب ربيع الشباب على خريف الطبيعة لان الانسان هو الذي يوقد الزمان ويجعل لـه حياة من التفكير والقوة والعمل » .

« لقد وقف ماوتسي تونغ في برد الخريف وثلج الشتاء ولكنه وقف يتفجر حيوية بالقوة والتفكير ليحيا شعبه سعادة الدفء ، وحماسة التغيير » .

وقد عرض د. أسعد علي نماذج كثيرة من شعر ماوتسي تونغ ليشير الى معركة التفكير في التغيير والسيطرة على الطبيعة وقال : « على الانسان أن يلاحظ الطبيعة ملاحظة دقيقة ليدرك قوانينها ويمتلكها بالمعرفة ويسخرها لخدمته فيتغلب على برد خريفها وثلج شتائها ويصل الى جني المواسم من ربيعها وصيفها » :

« وفي نسيمات الربيع الندية

يورق الصفصاف آلافا آلافا

ويصبح معه ستمائة مليون انسان حكيما مثل (ياو)

و « تشوين »

نفحة أخرى من شذا حدائق د. أسعد علي استقيتها من موضوع عنوانه « ثوب الفتاة ووجهها » كتبه في مجلة المرأة العدد ٩٣ الصادر في آب ، يحمل فيه الفتاة الشعور بالمسؤولية تجاه نفسها ومجتمعها وربها ، ويدعوها أن « تغرق ثوبها في ساعة حب صادق ، بالماء المتدفق من قلب ينبوع سره وراء المنظور وبرهانه ماثل في زمن الزهور ..» لتطهر ثوبها فيعود الى الله نقيا طاهرا ، بكرا كما فطر ، وتسأل الله أن يلهمها بأن تضع عليه صورة وجهها الصادق، ولهفة قلبها الوفي ، وطموح عقلها المفكر ، وثبات ارادتها المؤمنة ، ليكون هذا الثوب (أي النفس) جديرا بلقاء جمال الله المطلق .

هذه الباقة الصغيرة التي جمعتها من حدائق د. أسعد علي الفيحاء ، أتوجها بنفحات مختارة من مسرح الجمال والحب والفن في صميم الانسان وقد نشر مشهد منه في مجلة الموقف الادبي العدد ٩٣ الصادر في آب ١٩٧٦ :

يعرض د. أسعد علي في هذا المشهد مناجاة بين عاشقين يصور فيها أروع ألوان المثالية والصوفية في الحب، الصوفية التي يتخلى فيها العاشق عن كل شيء سوى الحب والتي يشرق فيها الكون من ضمير البلور أي من أعماق الانسان الشفاف الذي يرفع بتأملاته الستارة عن وجه الكون فيرى أصل الاشياء في الوجود الازلي المطلق .

ان كتابة د. أسعد علي تجري في عروقها المحبة بأسمى معانيها ، والدعوة الى الوحدة في أجمل أهدافها ومراميها ، ونلمس فيها الثورة على التقاليد البالية والافكار العتيقة والشوائب المؤذية ، يريد أن يصفي نهر

الحياة من الكدر والعكر ليعود ماؤه نقيا طاهرا كينبوعه العذب النمير قبل أن ترفده الاحقاد والضغائن والفرق والاهواء • انه يدعو ، في كل ما يكتب ، الى السلام والمحبة والاخوة •

وتتميز كتابته بعمق التفكير وتستمد معينها من ينبوع الايمان بالله الواحد الاحد ونبيه محمد (ص) وسنته المستقيمة وقرآنه الكريم الذي تبلورت فيه هداية الايحاءات السماوية وجعلته نبراسا للعالمين •

وكتابة د• أسعد علي في مختلف ألوانها ومعانيها تتميز باشراق الاسلوب وجدة المعنى والمبنى فما أجمل هذه الجدة في الاتصال الروحي في قوله على لسان العاشقة: (١)

« أثب اليك على دقات قلبك
فأراك ولا تراني »

وقوله على لسان العاشق :

أراك ولا أراك »
يموت الانسان بل ويحياك
أنت قلت للقلب
كيف يتقلب فيندفع الدم الى الثغر نشيدا »

وما أروع تعبيره عن أرق المحب المنتظر بقوله في القصيدة نفسها :

« وانتظارك سلام ليلة القدر
حتى مطلع الفجر »

وما أسمى تصويره للحب وهو يحلق بصاحبه الى أعلى عليين في قوله :

« علوت ببذور الحب من تحت التراب
الى ما فوق السحاب »

وقوله :

سموت على الحدود
كل أنواع الحدود
كل ما يفرق بين العين ونورها
بين الجسد وروحه
بين الانا والآخر
بيني وبينك
لاموت
هذا يعني انقلاب على كل ما يعرفون
وهو في لغتي
تفتيح قلوب شجرة الحب »

وما أطرف ربطة بين التكرار وتربية الخمير في موضوعه « تربية الخمير في شئون السياسة والتدبير » حيث ينتقد الاستمرار في تكرار الخطأ والتفسخ سواء في الخبز أو في العمال الذين يعملون وفق التعاليم التي خمروا بها أي ربوا عليها ووجهوا اليها ويبدي وجه الشبه بين « الخمرة العجينية » و « الخمرة الفكرية » : من قصيدة « لا موت •• لا خيال » المنشورة في مجلة الموقف الادبي العدد ٦٠ أيار ١٩٧٦ •

« فالمربون خبازون من طراز خاص وكما ينقل الخباز الى الخبز الجديد مذاق خميرته القديمة ، كذلك ينقل المربون الى من يربونهم من الاجيال الجديدة مذاق أفكارهم القديمة » •

ومن هذه الصورة الطريفة اللبقة يعمم نقده لخبز التدبير العالمي الذي عجز عن تحقيق السلام فيقول : « هل خبز السياسة للمربين في كل مكان ؟ أما يلاحظون تساقط الناس في كل مكان ؟ أما يفكرون في تغيير الخمير الذي ينتج هذا الخبز التدبيري القائل؟»(٢) •

ومن نوافذ كتابة د• أسعد علي يشع اضطلاعه باللغة وما توحي اليه ألفاظها المتجانسة من المعاني المنشعبة من ذلك قوله في معرض الحديث عن الريح : (٣) « فالريح تعني الهواء المتحرك وهي مؤنثة في قواعد الصرف والروح تعني ما به حياة الانفس••والروح في قواعد اللغة الصرفية تذكر وتؤنث وتطلق الروح على الوحي والملك ، وروح القدس ، وجبريل الملقب بالروح الامين ••• ويمكن الوصل بين الروح والروح ، فالروح من أعطيات الروح ، فروح الله رحمته • والروح عموما : الراحة والفرح » •

وله تعبيرات جميلة في استخدام الالفاظ المتجانسة كقوله : « عذاب العذوبة وعذوبة العذاب » وقوله : « يرفعني ايقاعها فلا أقع » •

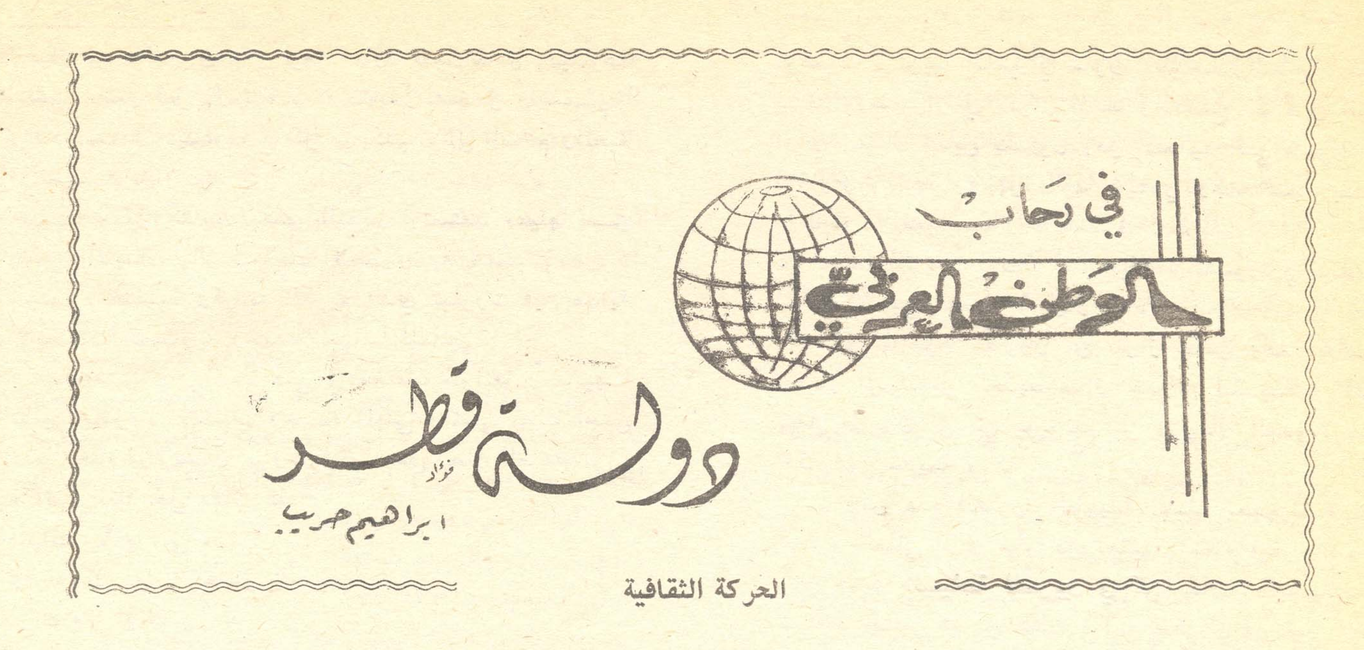
ان كتابة د• أسعد علي التي تترفع عن الابتذال وتحلق الى العالم الملائكي الاعلى ، والتي تبدو فيها العبقرية بأجلى مظاهرها : في الصور المبتكرة ، والفكر العميق والذوق الرفيع ••• جديرة بالدراسة العميقة والاقتباس من معانيها المشرقة ومعينها الصافي النمير •

فالى الدكتور أسعد علي المعلم العبقري ، والانسان العالمي ، والفيلسوف الروحاني ، أجزل شكر ، وأجمل تحية •

عفيفة الحصني

---

(١) شروق الحياة من ضمير البلور •
(٢) نشر هذا المقال في جريدة الثورة العدد ٤١٥٨ تاريخ ١٧٦/٩/٥ •
(٣) من كتاب المرأة في القواعد ص ٤٩ و ص ٥٠ •



الحركة الثقافية

١

كان عهدا علينا أن نبحث الحركة الثقافية في « قطر » من خلال دراسة الانتاج الادبي والفكري لادبائها وشعرائها، وان نرصد أبرز الظواهر الثقافية وما أثر فيها وفي اتجاهاتها ، وقد حيل بيننا وبين البر بما وعدنا ٠

ان دراسة الحركة الادبية والثقافية بشمول ، أو دراسة أدب كاتب وشعر شاعر في أي بلد خليجي ، ليس لها أن تعطي صورة كاملة الجوانب ، بمعزل عن دراسة شاملة للحركة الثقافية في الخليج العربي كله ٠٠٠ ذلك ، لان جميع المؤثرات في الفكر وفي النفس وجميع عوامل الخلق والابداع تتماثل الى حد الامتزاج في الخليج العربي، فالتكوين النفسي والاجتماعي للمجتمع كله واحد ٠ والمؤثرات السياسية والاقتصادية كلها واحدة ، ودرجات التعليم فيه متقاربة ، وان تيسر لبلد خليجي حظ من التعليم أكبر من بلد آخر ، لكنه لم يكن الاوفى ٠

ان انتاج أي شاعر أو أديب أو مفكر ـ وان كان لكل مشاعره الخاصة ، يتأثر بعمق بالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وان للعوامل الطبيعية والبيئة أيضا ، انعكاسا واضحا على هذا الانتاج ، والتفاوت بين أدب الادباء وشعر الشعراء في البلد الواحد ، يأتي من وضوح الرؤية أو غموضها ، ومن عمق الاحساس بالمؤثرات الخارجية أو سطحيته ، ومن مدى عمق انعكاسها في داخل الشاعر أو الاديب أو ضحالته ٠٠ ومن غنى التجربة أو فقرها ، وهذا لا يقتصر على الفنان وحده وانما يمتد الى الناس جميعا ٠

وصفوة القول ، ان المؤثرات الخارجية التي تتفاعل مع حياة الناس ، ويتعاملون معها ، هي واحدة في القطر الواحد ، لكن الاحساس بها ، وتأثيرها ، يختلفان عند الناس ٠

والخليج العربي مجتمع واحد، له مقوماته الاجتماعية والثقافية ذات الجذور العميقة ، وان فرقته حواجز سياسية وحدود اقليمية لم تكن من صنعه ، نبعت فيه العادات والتقاليد من معين واحد ، وعانى انسانه من الاستعمار معاناة بالغة ، وقاسى من الفقر والجهل حقبة من الزمن ما قاسى ، والبيئة متشابهة في كل أقطاره ،وكذلك الحياة الجديدة بعد الاستقلال ، خلقت في نفوس أهله انطباعات متقاربة ومؤثرات متشابهة ، فانعكس ذلك كله على الادب والشعر ، وعلى الثقافة بشكل عام ٠

كل ذلك ، وأكثر من ذلك ، دفعنا الى دراسة الحركة الفكرية في « قطر » من خلال دراستنا لهذه الحركة في الخليج العربي كله ، بفصول تأتي ٠

٢

لكن هذه الرؤية ، وهي جديرة بالتبصر ، لا تعفينا من دراسة الظواهر الثقافية التي برزت في « قطر » بعد الاستقلال ٠ والجذور التي سمقت منها ، فأخذت مكانها بين الحركة الفكرية في الخليج العربي ٠

كان التعليم في « قطر » قبل الاستقلال مقتصرا على فئة من الناس قادرة على تلقيه والسعي اليه ، بالقدر الذي ترى ضرورته للحياة، وكانت هذه الفئة تعيش في جو مغلق، أغلقه عليها الاستعمار البريطاني ، لكيلا تتسرب اليه

أفكار جديدة تهز كيانه ووجدانه وتخلق عند الانسان الانسان القطري رؤية واضحة **لواقعه المرير ، ورؤية أخرى أشد وضوحا للواقع الحضاري المتفتح الذي يعيشه العالم من حوله ، فلم يتيسر لهذا الانسان أن يتفاعل فكريا ونفسيا ، بالقدر الذي يصبو اليه ، مع اخوانه العرب ، ولم تتهيأ له سبل مواكبة النهضة الثقافية العربية التي بدأت في أوائل هذا القرن ، وما سمح له أن يطلع على الحركات العالمية المعاصرة، بالقدر الذي يجعله يتعامل فكريا ووجدانيا وانسانيا ، مع هذه أو تلك ٠٠ وما اهتدى الى افاق جديدة هزت فكر العالم ومشاعره ووجدانه ، وبدلت كثيرا من النظرات والنظريات التي كانت مسلمة كالبديهيات ٠**

ليس هذا فحسب ، وانما وجه التعليم قبل الاستقلال على ضآلته واقتصاره على فئة معينة ـ الى ما لا يغني ، والى ما يحد من ثقافة المتعلم ومن نموه العقلي والنفسي ، والى ما يغرق احساسه ووجدانه في سلبيات وتناقضات حادة ، يتيه فيها المرء ، ويضل سواء السبيل ٠

غير أن الاحساس الجديد بالمجتمع القطري ، وبما هو واقع فيه من جهل وتخلف ، أقعداه حينا من الدهر ، عن مواكبة الركب الحضاري بما كان يحمل من معطيات ثقافية واجتماعية وسياسية ، دفع هذا الاحساس بالذين يملكون أداة الفكر وارادة العمل ، الى رؤية جديدة واضحة، خلقها التفتح على الحياة الانسانية، وكونها الاحساس العميق بالاحداث التي ألمت بالوطن العربي ، وهو جزء منه ، فوضعوا الامر في مساره الصحيح ٠

ان هذا الطريق لم يكن ممهدا ، انه قد زرع بالحسك والشوك ، والسير فيه محفوف بالصعاب ، فلا بد من قلع الشوك ، وازالة الصعاب والعوائق ٠

فتحت المدارس والمعاهد،وجيىء بالمدرسين من الاقطار العربية،يحملون تجاربهم،وينقلون العلم والمعرفة،ويفتحون الاذهان على الحياة الجديدة ، فبدأت نهضة تعليمية في البدء واسعة ، ثم حركة ثقافية ، انطلقت الى آفاق جديدة ، تعهدتها الدولة ، ورعتها بطاقات غير محدودة !٠٠٠

تأسست دار الكتب القطرية ، وزودت بالكتب الكثيرة التي تبحث أنواع المعرفة من علم وأدب وشعر وتاريخ ، ينهل من معينها رواد العلم والمعرفة ، ويرجع اليها الدارسون والباحثون في دراساتهم وبحوثهم ٠

وأنشأت صحف ، تنقل الى الانسان القطري أخبار العالم ، ومجلات غنية بالدراسات ، تنقل اليه فكر العالم وأدبه وشعره وفنونه ، بأيسر السبل ٠ وتأسست دور للطباعة ، تدفع بالكتب الى الناس ، بأقل ثمن ٠

من ذلك كله ، تفتح الجو الذي أغلقه الاستعمار على الناس ، فأطل الانسان القطري على ثقافات العالم ، وانطلق يعب منها ، فتأثر بها ، وبدأ بالعطاء ٠٠٠ بعد أن وعى ما يدور حوله ، وبعد أن أدرك بعمق صلته القومية والوجدانية ، بالوطن العربي ٠

٣

ثمة أمر ، أعطته دولة قطر ، أهمية بالغة ، هو كتابة تاريخ قطر ، من خلال كتابة تاريخ الخليج العربي ،كوحدة اقليمية وسكانية وسياسية ، ولعل معرفة الناس بتاريخ بلدهم ، بما فيه من صفحات مضيئة وأخرى مظلمة ، تخلق عندهم رؤية جديدة ، لمستقبل يكون أشد اشراقا وأكثر عطاء ، وتؤكد ارتباط الماضي بالمستقبل عبر الحاضر ، وتوثق صلته بتراثه العربي الاصيل والتصاقه به ، لينطلق من معطياته الثرة الى آفاق حضارية ، يؤكد فيها ذاته ، ويحقق شخصيته المميزة فكريا وقوميا وانسانيا ٠

ولقد اتخذت الخطوات التمهيدية لهذا المشروع الضخم فتألفت « لجنة كتابة تاريخ قطر » ، وأعدت دار الكتب القطرية ، ثبتا بالمصادر التاريخية والسياسية والاجتماعية التي لا يستغني عنها الباحثون ، تلتها خطوة أكثر أهمية ، هي جمع الكتب والدراسات العربية والاجنبية التي بحثت تاريخ الخليج العربي وأحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ووضعت بتصرف تلك اللجنة ، لتكون مراجع لها ومصادر لكتابة تاريخ قطر من خلال كتابة تاريخ الخليج العربي كله ، على أسس علمية حديثة ،

والثقة عظيمة في أن تكون كتابة هذا التاريخ علمية وموضوعية ، بعيدة عن الانفعالات النفسية والعاطفية ، وبعيدة عن المؤثرات السياسية ، فالامانة التاريخية تقتضي ذلك ٠

ومن الخطوات المتخذة في هذا السبيل ، صدور الترجمة العربية لموسوعة « دليل الخليج » على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ، أمير دولة قطر ،ولقد كتب هذه الموسوعة عدة باحثين انكليز باشراف « ج٠ لوريمر » لتكون مرجعا لمعتمدي وموظفي الحكومة البريطانية في الخليج العربي ، عند معالجتهم شؤونه العامة ٠

ويتألف هذا الدليل من ١٤ جزءا ، **تضم حوالي سبعة** آلاف صفحة ، خصصت سبعة أجزاء منه لتاريخ الخليج العربي ، والسبعة الاخرى لجغرافيته ، ويحتوي الدليل **على أنواع ثلاثة من المعلومات** ، هي :

١ ـ معلومات تتصل بالاستراتيجية السياسية في الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين٠

٢ ـ الاوضاع السياسية في كل قطر خليجي ، وعلاقته

بالاقطار المجاورة والجدير بالذكر أن هذه الموسوعة تعتبر العراق والمملكة العربية السعودية وايران من الدول الخليجية .

ويأتي هذا الاعتبار ، من العلاقات القائمة بينها ، من جهة . ومن العوامل التي تؤثر في سياسات هذه الدول .

٣ ــ الواقع الاجتماعي والاقتصادي للخليج العربي، تاريخيا وجغرافيا . وترجم الى العربية ، بعد هذه الموسوعة كتاب الشؤون القطرية من عام ١٨٧٣ الى عام ١٩٠٤ ، في سلسلة وثائق التاريخ القطري ، من تأليف الكاتب الهندي « جي. اي. سالدانا » وترجمة الاستاذ محمد العناني .

وهو سرد وتبويب لاهم المراسلات السياسية التي تمت في شؤون قطر : ــ بين المقيمين السياسيين الانكليز في الخليج العربي ، وبين كل من وزارتي الخارجية وشؤون الهند في لندن وحكومة الهند البريطانية .

ــ والتي دارت بين الحكومة العثمانية والسفراء البريطانيين .

ــ وبين شيوخ وأمراء الخليج والوكلاء البريطانيين.

وليس من شك في أن هذه الوثائق ، قد نسقت ــ كما يقول مترجمها ــ بشكل يخدم وجهة نظر المصالح البريطانية في قصة الصراع العنيف من أجل السيطرة على قطر والخليج العربي ، لكن أهميتها البالغة تأتي للجيل الجديد من أن فيها تبصرة وموعظة ، وفيها تذكر بأوزار الاستعمار البريطاني وبالآثار العميقة التي خلقها في المجتمعات التي تحملت تلك الاوزار .

هذا جانب من الجوانب الثقافية التي اعتنى بها المسؤولون عن الثقافة في«قطر» واهتموا بها ولعله لايصرفهم عن رعاية الجوانب الاخرى التي هي لازمة وضرورية ، لبناء صرح ثقافي وفكري ، في هذا المجتمع الناشىء ، يكون أساسا لخلق جيل جديد ، ينال حظه من الحضارة التي كان العلم والمعرفة ، قاعدة متينة لها ولتطورها .

ولعلنا ، بعد ذلك ، لا نكون مخطئين ، في دراسة الظواهر الثقافية والانتاج الفكري والادبي في « قطر » من خلال دراسته شاملة ، لهذه الظواهر في الخليج العربي كله.

ولعل الامر يتيسر ، عندما تتوفر لدينا المصادر اللازمة لهذه الدراسة الواسعة وتهيأ الظروف الملائمة في غد قريب !...

٤

ان للحياة الاجتماعية علاقة وثيقة بالحياة الثقافية ، بما لهما من تأثير على بعضهما بعضا ، ولن تكون دراسة الحياة الثقافية في مجتمع وافية ، ما لم ترتكز على دراسة واعية للمجتمع ونظرته الى الحياة بكل جوانبها .

ولقد رأينا حياة المجتمع في « قطر » عندما كان يرزح تحت الاستعمار ، وينوء بأوزاره ، فهو يتكون من أناس ما زالوا يحيون حياة البداوة الاولى في صحراء ليست بذات زرع ، وآخرين في قرى أرهقتهم الحياة البدائية ، وغيرهم في مدن أشبه بالقرى ، وكلهم ينعمون بالفقر والجهل ،الا فئة قليلة تيسرت لها سبل العيش ببعض رغد ، وتيسرت لها سبل التعليم بحدود ، كل ذلك أثر في عقل الانسان القطري ونفسه ووجدانه ، وبالتالي كان أثره بالغا في الحياة الثقافية .

وبعد الاستقلال ، أخذ التفكير بالتنمية الاجتماعية ، يلهب المسؤولين ، للخروج بالمجتمع القطري من واقعه الممزق المرير الى واقع جديد يساير المجتمعات الاخرى من حوله ، ويستطيع الصمود أمام الهزات الاجتماعية التي أحدثتها الحضارة ، وكونتها العوامل الاقتصادية المختلفة بتأثير من العوامل السياسية .

وفضلا عما نوهنا به من الاساليب التي طرحت للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولنمو الوعي القومي والثقافي ، فقد انبثقت في الاذهان فكرة التعاون التي أخذت بها المجتمعات المتحضرة والنامية .

فالتعاون قوة أساسية في سلوك المجتمع ، اذا ما كان مبنيا على أسس ومبادىء واضحة يسهم في الخطة الانمائية القومية ، وهو حركة شعبية ، تمثل قطاعا واسعا في المجتمع، اذ دخلت ميادين الاستهلاك والزراعة والصناعة وتشييد المساكن ، والصحة والتعليم ، وغير ذلك من الشؤون الحياتية .

وهو نظام اقتصادي ديمقراطي ، يستطيع التوفيق بين التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية ، بسبب من الشعور المشترك بين أفراد الجمعيات التعاونية ، والافكار الهادفة والممارسة الجماعية لادارة نشاطاتها المختلفة .

ومن هذا المنطلق ، صدر في قطر قانون بانشاء الجمعيات التعاونية ، وقد استمد هذا القانون نصوصه من أحدث النظريات التعاونية التي طبقت في البلاد المتقدمة وفي البلاد النامية ، بما يتلاءم وخصائص المجتمع القطري، وبما يتفق وحاجاته الاساسية وامكانياته المتوفرة .

وكان صدور هذا القانون دافعا قويا لتأسيس جمعية تعاونية استهلاكية ، هو الاولى في قطر ، ولعلها تكون نواة لجمعيات تعاونية أخرى ، تحقق أغراضا للمجتمع في مجالات تأسيسها ، تجعله يشعر بعمق بمسؤوليته الاجتماعية والاقتصادية، وتسد فراغا هائلا خلفه الاستعمار ، ينطلق منهما الى آفاق أخرى ، أكثر عمقا وأشد أثرا في وضعه على الطريق القويم الذي يقوده نحو حياة أفضل ، فيها علم وثقافة ، وفيها قوة ومنعة ، وفيها تفاعل قومي سليم ...



أحلام السراب

بقلم : محمد احمد العزب

و « أحلام السراب » هو الديوان الشعري الثالث للدكتور الشاعر محمد عبد المنعم خفاجي ، وان يكن أول ما وقع في يدي من شعر لهذا الرجل الهائل العطاء ... وما أحسب الدكتور الخفاجي كان كاتبا قبل أن يكون شاعرا ، فان نشأته الريفية ، وثقافته الدينية والادبية ، وطبيعة منطقه في تناول الاشياء ، كل ذلك يؤكد بأن عمق الشاعرية فيه أبعد أغواره غورا ، وأن ما عدا الشاعرية فيه يأتي تاليا ... وان كان ذلك التعاقب لا يتحيف من قيمة شيء لحساب شيء آخر على الاطلاق ... بمعنى أن قضية سبق الشعر في الرجل لا تنال من قيمته الفكرية وانما نعني بالضرورة أن شاعرها ينطلق من منطلق الشاعرية في كل شيء ، ويأتي فكره ليضع هذه الشاعرية الواثقة في مناطها الصميمي من حركة الخلق وديمومة الابداع !

واذا كانت مدرسة « أبولو » في الشعر قد استقطبت عديدا من الشعراء الفارهين في مسار الحركة الشعرية المعاصرة واستطاعت من خلال هؤلاء الشعراء – أن تستصفي أروع ما في الاتجاه التقليدي من قوة التعبير ، وفحولة الاداء وصفاء الايقاع ... وأروع ما في الاتجاه الذهني – اذا صح أن يقال – من وحدة الحس ، ووجدانية الحركة ، وهز الاعماق . واحتضان الطبيعة .. فان شاعرنا يقف – من خلال ابداعه الشعري وليس من خلال مجرد حضوره الآني – مع شعراء هذه المدرسة ، وان تكن المقامات الشعرية تتفاوت من شاعر الى شاعر ، ومن نوعية ثقافية الى نوعية ثقافية ، ومن طموح في حركة الابداع الى طموح في حركة الابداع !

بمعنى أننا نستطيع أن نجد في شعر الدكتور الخفاجي تجنيحا كالذي نجده عند شعراء أبولو بلا استثناء وخاصة حين يجنح شاعرنا الى بكائياته العذبة يفلسف فيها أحزانه وأحزان عصره اللاغط بملايين المقولات الضاغطة على صدره العامر بالاغنيات .. ولكننا كذلك نستطيع أن نجد في شعر الدكتور الخفاجي أبوابا فارقة بينه وبين زملاء مدرسته على الاطلاق وخاصة حين يعطف شاعرنا – بحكم مزاجه ، وثقافته – الى لون من ألوان التصوف الوجودي – اذا جاز لهذا التعبير أن يستقيم – فيصبح التصوف وجوديا – فان كل تمرد يبحر معه الدكتور الشاعر ما يلبث في تضاعيف القصائد أو في نهاياتها أن يجنح الى استغفار لائذ ، أو استرفاد لقوى الالوهية الخالقة ... وتلك خاصية ربما لا نعثر عليها في شعراء مدرسته بلا تفريق ! ... ان التمرد الكاسح – في القصيدة الواحدة – عند شعراء أبولو لا ينعطف الى مهادنة من أي لون ، ولكن هذه المهادنة عند الدكتور الخفاجي ظاهرة لا تتخلف في أي من القصائد التي يبحر فيها مع خاطر هاجس ، أو انفلات متأزم على نحو من الانحاء !

في قصيدته « هموم الفكر(١) » يبدأ الشاعر بالثورة العارمة :

بكيت .. ويضحك القدر
ونمت .. وغيرنا سهروا
ومن عجز الضعيف
خصوم حرياتنا قدروا
وقلت مناجيا نفسي
لماذا كان لي بصر ؟
لماذا كان لي عقل ؟
لماذا كان لي نظر ؟
لماذا كنت انسانا ؟
وأفضل مني الحجر ؟

هذه بداية ثائرة ومتمردة ، وكان يمكن لشاعرنا أن يستطرد مع هذه الثورة ، وأن يتمرد أعرض من هذا التمرد ولكن الكوابح الذاتية والبيئية والثقافية هاضت هذا الجناح الباسل على هذا الافق ، وجنحت به على أفق مغاير تماما ، ربما يستقيم منطق الاشياء هنا اذا قلنا انه ثورة على الثورة ، وتمرد على التمرد ، واستجابة لموقف عقائدي نحن نحترم ذرات ذراته بلا حدود ! ان الشاعر يجهش في ألم عقب حشد من التصورات الرائعة :

(١) أحلام السراب – ص ٣٩ .

لماذا رب لم يدرك
حقيقة هديك البشر ؟
لماذا رب كل الناس
بالاوهام قد أسروا
وفي ادراك معنى الحق
والايثار ... قد عثروا ؟
ولم يجمع على توحيدك
القدماء ... والاخر ؟
لماذا رب ضل الناس ..
ليس تردهم نذر ؟

وانسيابا مع هذا الموقف العقائدي يكتب الشاعر عديدا من القصائد المحضنة لهذا الغرض ، « رحلة التاريخ (٢) .. مهرجان الحق(٣) .. ملحمة الاجيال (٤) ... أمم تطوى(٥) » وغيرها .. وهو في كل هذه القصائد يحاول بالفعل أن يقول كلمته وأن ينوع ـ بصوته هو ـ على لحن نوع عليه شعراء العربية في كل أجيالنا ، وهنا تبدو فداحة العبء الشعري بحق ، ويبدو المتصدي لهذا العبء واحدا من الكبار اذا سلمت لنا خطواته على هذا التراب الحاشد بملايين البراكين !..

وقد تعطي قصيدة « رحلة التاريخ » وجه القضية أروع مما يعطي سواها بلا حدود ..

قد أعز الانسان فيها النبي
ليلة كل شأنها عبقري
كل ساعاتها عظيم مجيد
وعظيم صاحبها والعشي
وجهها المشرق الجميل البهي
فجرها الابيض الوضيء الندي
وقف الدهر خاشعا في حماها
وهدى الارض نورها الاحمدي

وتمضي القصيدة على هذا النسق من هذا الايقاع المتواصل الموحي فتستعصي كل أبعاد الرحلة ، ونحس مع آخر أصدائها أننا على مشارف الانتهاء في رحلة كل أبعادها عبقري : المحتوى ... والشكل والشاعر الذي عانى في رحلة الابداع !..

وهنا ـ لا بد أن نستيقظ على حقيقة أن الشاعر في رحلة عروجه الفوقي في قصائده الايمانية لم يفلت من قبضة كونه شاعرا من مدرسة أبولو .. وهذه الكينونة الشعرية ، ليست شيئا ساذجا يمكن أن نمر به هكذا عابرين ... لقد احتذى الشعر الايماني أنماطا سابقة عليه دائما ، فوقع على ثراب الفقد لهويته الذاتية ، وهذا أخطر ما واجه الشعر الديني من تحديات لم يفطن اليها دارسو هذا اللون من الشعر على مستوى تذوقي أو مستوى أكاديمي جميعا وبلا تفريق ! ولكن شاعرنا هنا حاضر في كل بيت من أبيات قصيدته حال في كل صورة من صورها ، ليس بما هو فرد مبتوت الجذور بما قبل وبما بعد ، لهذا مناط لا يمكن العروج اليه . وانما .. بما هو واحد من جيل شعري يعتنق رؤى وجدانية شاعرة ، ويتحرك من خلال منظور فني على كل الجبهات ، وفي كل اتجاه !..

* * *

ولكن الحس العقائدي المحتوي ليس هو كل القضية في هذا الديوان ، فهناك الى جواره يبدو الحزن حسا مأساويا على مستوى من التغور في صميم الذات .. ولست أعني هنا بالحزن هذا النوع من الاحباط النفسي الذاهل عن دوره وهويته ، وانما أعني هنا بالحزن هذا النوع من الفجيعة الكونية في منطق الاشياء .. ان هذه الصرخة الحزينة الاسيانة تترجمها الكلمات :

نحن يارب.. من عقيدتنا.. من ديننا.. بين ذا الورى غرباء أن يكون الجمال .. والخير .. موجودا .. ولا يبصرون .. داعيا

وهذه الكلمات :

هي الحياة وأشجانها
آلامها لي وأحزانها
أنا منها قصة ضخمة
ومن القصة عنوانها

وهذه الكلمات :

وي لأمسي ولايامي وي
ولليلي ونهاري العبقري
المنى كل المنى قد ذهبت
وتلاشت بددا من راحتي
وبقايا الحلم كانت بيدي
أين ما كان قريبا بيدي ؟
أين أمسي الصفو ؟ ولي ومضي
ثم أبقى لي الاسى في وجنتي
والرؤى أضحت خيالا ودجى
بعدما كانت سني في ناظري
فسواء أملي أو ألمي
ليس فرق بين الاثنين لدي

---

(٢) ص ٨ (٣) ص ١٢ (٤) ص ١٥ (٥) ص ١٩ .

ان قضية الحزن هنا لا تعني ـ كما قلت ـ موقفا ذاهلا عن نفسه وعن كل شيء ... وانما تعني بالضرورة وجوديا فاتحا أحداقه على كل شيء على العشوائية الباهظة التي تحكم الاشياء .. على القوى العدوانية الساحقة للقوى المسالمة .. على القبح الوجودي الملتهم في شراهة التنين كل جماليات الحياة .. على الحرب .. والجوع والتفاوت .. والغلاظة .. والاهدار .. والظلم .. والدمامة وكل ما هو منتم بالضرورة الى عائلة القبح في جنبات الوجود !

ان هذا الحزن هو حزن ديوان « أحلام السراب » مع احتياط ينبغي أن يراعى جيدا في هذا الصدد ، وهو أن الشاعر لم يقع في شراك المباشرة للتعبير عن كل هذه المقولات ولكنه ظل رابضا في موقعه الذي ينتمي اليه ، عاكسا كل آلامه وأحلامه من خلال هذه القناعة الذاتية بأن على الشاعر أن يحس ويقول .. وليس بأن يقول ثم يحس !

ان حزنا ذاتيا يندغم في حزن كلي هو ما يرى في هذا الديوان ان حزن الشاعر على فقد أمه .. وأبيه .. يندغم في حزنه الشامل على فقد العدالة والحرية وجمال الجمال فوق الارض .. وهذا وحده هو ما يعطي حزن شاعرنا مذاقه الصميمي ، الشامل لابعاد كل المقولات الصميمية الهادفة الى قرار !

أماه .. كنت لي الحنان جميعه
وبك الرضا .. والعطف ... والسكن
عشت السراب ... وذقت كل خداعه
وأصاب غيري الخوف والوهن
أماه ... أبكي العمر وهو منيع
وقلوب صحبي البغض والضغن
أماه أبكي العيش وهو مرتق
وحياة غيري ... الزور .. والافن

هذا هو مذاق الحزن في ديوان « أحلام السراب » !

* * *

والحب .. ثالث أبعاد هذا الديوان .. الحب الذي عرفناه عند شعراء أبولو .. حبا للفاتنة .. وللصديق .. وللابن وللطبيعة .. وحتى للحب نفسه .. وأبدا يبحث الشاعر في من يحبه عن الدفء المنتقد .. والحنان المنشود ... والفرح الغائب عن دنياه ...

يغني شاعرنا لوحيده « ماجد » فتسيل شفافية وعذوبة من لون رائع بحق ..

واحة آمالي .. أنت .. في متاهات السفر
كالسحر جئت .. كالسنا .. وكالنسيم في السحر
وجئت كالمنى .. وكالنصر .. أتى على قدر
كالشمس يوم الزمهرير .. كالشذى غب المطر

وما أحلى العيش حين جئتنا بأروع الصور
وصرت يا (ماجد) في جيدي عقدا من زهر
وأعشو شبت بك الحياة وارتوى بك الثمر
وأخضر عشنا ، وكان العش مجدب الصور
انسان عيني ، ورؤى الروح ، ومهجة البصر
وفلذة من كبدي .. وعدة اسمي في البشر

ويغني لحضن الدفء في حياته لينهمر العطر في كلماته :

يا كل آمالي ومهجة خافقي
حسبي فمهد الحب يعرفني
أنت التي أشعلت في قلبي المنى
وهواك صدق هواك يذكرني
حسبي ذنوبا في الهوى دهري الذي
بطموح نفسي عاد يحرمني

وحين يغيب حضن الدفء عن حياته يجهش :

وان بعدت فاني أحيا على ذكرياتك
طول النهار أناجي الجميل من أمسياتك
والليل أنشر فيه المكنون من صفحاتك
وفي فؤادي .. ترن العذاب من ضحكاتك

الحب هنا مشدود من الخاص الى العام ، ومن العام الى الخاص بلا حوائط عازلة بين هذين المحورين .. الحب الذي يعطي بلا ثمن ويدفع أغلى الاثمان حتى يعثر على حب جديد ..

* * *

وأكاد هنا أنتهي الى قناعة أخرى .. هي أن شعراء الازهر ـ والدكتور الشاعر محمد عبد المنعم خناجي واحد منهم ـ بحاجة الى دراسة خاصة مستأنية ، تتفرس ملامح اتجاهاتهم على تشعبها وتباينها ، وتبحث لكل واحد منهم عن انتمائه الفني الحقيقي ، ومدى ما أفاد من ثقافته الانتمائية ، ومن انتمائه لثقافته . فان كل أولئك راجع في النهاية الى تشكيل حركة شعرية تصدر عن رافد صميمي . وان تغايرت شكوكها وأنماطها وألوان انتماءاتها الفنية .. وان كنت واثقا من شيء . فانني واثق من أن الدكتور الشاعر محمد عبد المنعم خفاجي أقمن دارس بهذه الدراسة أولا : لانه رجل أكاديمي يعرف من أين يبتدىء والى أين ينتهي ... وثانيا : لانه فنان شاعر يعرف قيمة النبض الشعري ومساره جميعا . وقبل أن ألقي بالقلم .. فلتكن تحية الوداع .. أن أشد على يد الرجل وأن أنيط به هذا العبء ... وأن أسترفد قلمه الشاعر آلافا من مواعيد الحرف تختبىء في قفزاته الواثبة فوق السطور !

●● محمد أحمد العزب

مع الآداب العالمية

ثقة الرفيق القائد العميقة وعطفه وحنانه

• وجان تشوك كو •

عندما استعرض أيام الكفاح المسلح ضد اليابانيين وما فيها من صعوبات ، فان أبرز ما أتذكره هو الاسلوب الذي كان الرفيق (كيم ايل سونغ) يعلمنا اتباعه ، ويحرص على أن نحلي به طريق الثورة ونزينه .

وعندما نفكر بخمسة عشر صيفا وخمسة عشر شتاء تلك التي استمر خلالها الكفاح ، نجد أنها لا مثيل لها في تاريخ العالم بأسره . ليس من حيث طول المدة بقدر ما هو من حيث الصعوبات . وان قيادة الرفيق القائد الفذة وادارته الحكيمة هما اللتان جعلتا ذلك الكفاح ممكنا . ولقد كانت ادارته تعني أننا لا نتجادل قط في موضوع معركة خسرناها . ولما كان الانصار جميعا يفكرون ويعملون وفقا لافكاره وتصميمه ، وهم من حوله ملتفون في وحدة سياسية وعقائدية أشبه بالفولاذ ، فقد تمكنا من بلوغ الهدف .

وهذه الوحدة السياسية والعقائدية ، وهي المصدر الوحيد لقوة الانصار ضد اليابانيين ، وهي قوة لا تقهر ، قد بناها وأسسها الرفيق (كيم ايل سونغ) ، زعيم الشعب الكوري العظيم .

ومهما تكن الظروف ، فقد كان الرفيق (كيم ايل سونغ) يضع دوما في أولئك الذين يكرسون أنفسهم للنضال الثوري ثقة لا حدود لها دون أي تحفظ ، ويقودهم على طريق الثورة نحو النصر .

وقد أيقنت من خلال تجربتي الشخصية طوال الكفاح المسلح ضد اليابانيين بأننا لولا هذا السلوك الحكيم الذي سلكه الزعيم ، لما تم تأهيلنا ولما تأهبنا لنصبح ما أصبحنا عليه : ثوريين حقيقيين ، **ولما انتصرت الثورة .**

وقد أصبحت عضوة في القوات الرئيسية للجيش الثوري الشعبي الكوري ، بقيادة الرفيق كيم ايل سونغ ، في ربيع ١٩٣٦ وقابلت الزعيم وقتئذ لاول مرة .

وقد سلكت طريقا شائكا مشحونا بالمشاكل والآلام الى أن قابلت الرفيق كيم ايل سونغ في ذلك الربيع . وقد أجبر والداي على اجتياز الحدود نحو ـ شيين تاو ـ مكرهين وكنت صغيرة جدا ، وودعنا حياتنا في كوريا ، وكانت تحت جور سلطة الامبرياليين اليابانيين . وكلما كبرت ، كنت أحس بنفوذ المنظمات الثورية وتأثيرها ، وتطور ضميري الطبقي تدريجيا مع الايام الى أن باشرت عملا في اتحاد نائي .

وكانت مكافحة الـ ـ مين سينغ دان ـ تجري وفق اسلوب يساري متطرف ، واتهمت ظلما بأنني عضوة في الـ ـ مين سينغ دان ـ . وفي ربيع ١٩٣٤ ، كنت أعمل في اتحاد نسائي قرب قاعدة الانصار في ـ وانغ يوكو ـ في مقاطعة ـ يين شي ـ . وجاء لمقابلتي بعض الناس ممن لا أعرفهم . وأرادوا اقتيادي الى قاعدة الانصار ورفضوا الاصغاء لتوسلي ورجائي .

وكان وضعهم هادئا باردا وبعيدا عن الطـ يعي

وسألتهم عن السبب في اقتيادي الى القاعدة ، فقالوا بأنهم قد أبلغوا بأنني مرتبطة بال ـ مين سينغ دان ـ ·

وعندما سمعت هذا الاتهام المضلل أحسست بأن الدنيا برمتها قد سقطت في هوة سحيقة ، ولم أدر ماذا أفعل · ولم تكن لي بال ـ مين سينغ دان ـ أي صلة ، ولكنني كنت أعلم جيدا أنه عندما يتهم أحد بأنه عضو في ال ـ مين سينغ دان ـ ، فليس من السهل اثبات براءته ·

ولم يكن لي الخيار ، فما داموا قد حضروا لاقتيادي لا بد لي من الذهاب معهم · وعندما وصلت الى القاعدة ، استعمل القوميون المتطرفون جميع السبل والاساليب لاستجوابي وارهابي واذلالي ، وساقوني في النهاية أمام محكمة ـ آرغوازية ـ هزيلة ·· ويستحيل علي وصف ما أحسست به من ذل وعذاب ومرارة ·

وغمرت نفسي ذكريات الماضي ، وكيف أنني عملت كمربية أولاد عند أحد الملاكين ، بينما كنت لا أزال فتاة صغيرة فتعرضت لجميع أنواع الذل والهوان · وكيف كنت أعمل في خدمة قضية الثورة كساعية اتصال وكعضوة في الاتحاد النسائي ، دون أن أسمح لنفسي بنيل قدر مناسب من النوم ·

فكيف يمكن أن أتهم بالانتساب الى ال ـ مين سينغ دان ـ ؟ أولم أكن مصممة على أن أهب حياتي في قضية الثورة ؟ أولم أساهم في النضال ؟

وكنت أعلم جيدا أن ال ـ مين سينغ دان ـ جماعة من المستفزين المحرضين المبغضين ، تبناهم الامبرياليون اليابانيون كاتباع كي يعملوا بتحديهم وبتهييجهم المغيظ المثير ، على لغم صفوف الثورة من الداخل ، وهي تنمو نموا متواصلا يوما بعد يوم · وقد استجر القوميون المتطرفون في غفلة منهم ، وبمكيدة خبيثة الى الرقص على أنغام الامبرياليين اليابانيين · وقام أتباعهم ممن سلروا في ركابهم بتصعيد الصراع ضد ـ مين سينغ دان ـ باتجاه يساري متطرف ، واتهموا الرفاق الثوريين ، وتوصلوا بذلك الى تقسيم صفوفنا · ولقد كان هدفهم فصل الرفاق الثوريين عن صفوف الثورة بالقوة ·

وأصبحت ضحية هذه المؤامرة المحبوكة بدقة وخبث واتقان · وكان لا بد لي من مجابهة تلك المحكمة الهزيلة · الا أن جماهيرنا الثورية كانت تحسن التمييز بين الحق والباطل · وردوا في المحاكمة الجماهيرية ما ألصقه بي المتطرفون من اتهام غير مبرر لا يؤيده دليل · وأقيم الحق وزهق الباطل ونجوت من الازمة ، وكان في ذلك الحد الفاصل بين حياتي والموت ، على أن هذا لم يكن يعني أن الامور جميعا كانت تجري على ما يرام ·

ثم ان وصمة العار بأنني متهمة بالانتماء الى ال ـ مين سينغ دان ـ كانت تلاحقني كظلي أينما كنت وحيثما توجهت · وواضح أنني لم أكن وحيدة في مثل هذا الوضع ، فما أكثر أولئك الذين صمموا على دعم الثورة ، فانخرطوا في الكفاح ، وكانوا معذبين اذ حملوا وصمة تهمة الانتماء الى ال ـ مين سينغ دان ـ منذ البداية ، وقبل أن يكون بوسعهم أن يساهموا في النضال بشكل فعلي يستحق الذكر ·

انه لعذاب أليم أن يتهم من يسير على طريق الثورة بأنه رذيل عدو للثورة غير جدير بالثقة فيستبعد ويفصل · على أن مخاوفنا كانت تنحصر في التفكير بمصير مستقبل الثورة الكورية ·

وقد كان عدد من الشيوعيين المضمونين الى أقصى الحدود قد خاضوا في تلك الفترة بالذات في الكفاح في ـ مندتشوريا ـ الشرقية · وكانت عقيدتهم الطبقية منبثقة مما تعرضوا له ، هم شخصيا ، من استغلال الامبرياليين، اليابانيين والملاك والرأسماليين ومن كراهية وازدراء · فكانوا ثروة الثورة الكورية لا تقدر قيمتهم بثمن · فكان الاسى يحز في نفسي ويملىء قلبي كلما سألت نفسي عن مصير الثورة الكورية اذا ما استبعد الشيوعيين الحقيقيون·

وفي هذه المرحلة الدقيقة بالذات ، اتخذ الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ جميع الاجراءات اللازمة لتصحيح أخطاء اليساريين في مكافحة ال ـ مين سينغ دان ـ ولانقاذ الثورة الكورية من الازمة ·

وعندما تلقينا تقارير مؤتمري ـ تا هوانغ وي ـ و ـ ياوبينغ كو ـ التاريخيين ، نذر الانصار وجماهير القواعد الشعبية ، **الاخلاص للرفيق ـ كيم ايل سونغ** ـ الزعيم المحترم المحبوب ، **يغمرهم شعور عميق جدا** بالوفاء والاحترام والعبادة والخضوع ·

والتقيت بالرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ ، ذات يوم من ربيع ١٩٣٦ في ـ ما آن شان ـ لاول مرة · وكنت أكن له كل احترام منذ القديم · وكان قد توقف في ـ ما آن شان ـ وهو بطريقه الى ـ بيك دو ـ حيث كان يريد اعطاء دفع جديد للثورة الكورية بعد مؤتمر ـ نان هو تو ـ ، ومعه ما يقارب المئة من رجال الفرقة الرابعة لتنظيم الفرقة السادسة من جيش الثورة الشعبية الكورية ·

وفي تلك الفترة ، كان بعض موظفي الفرقة الرابعة السياسيين ، ممن يتأثرون بالقومنيين المتطرفين ، قد قالوا بوجوب عدم السماح لهؤلاء الرجال المئة من الجنود الخاصين بالاشتراك في الكفاح ، لانهم جميعا متهمون بالانتمـاء الى الـ ـ مين سينغ دان ـ ٠ وكنت من عداد أولئـك الذين اعتبروا هكذا بحكم الضائعين ٠

وتقدمت لمقابلة الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ ، وأنـا أشعر بأنني ملطخة بالوحل ، وأتألم ألما شديدا من وصمة ما اتهمت به من الانتماء الى الـ ـ مين سينغ دان ـ ٠ الا أن الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ قد لاحظ أننا عذبنا واضطهدنا دون مبرر ٠ فالتقى بكل منا ، وسألنا مفصلا عن ظروف اتهامنا ظلما وقال لنا بأن علينا أن نتخذ منطلقا جديدا ما دمنا لا تربطنا بـ ـ مين سينغ دان ـ أي صلة ٠ ثم أشعل عود ثقاب وأحرق الاضابير بما فيها من شهادات وخلاصات ضبوط واستنتاجات ونتائج وأدلة مادية ، وكل ما يتعلق بها من وثائق ٠ هكذا كان ـ ايل يثق بنا ـ ٠

وقد أورد الرفيق ـ بيك هاك ريم ـ تفصيلا مسهبـا عن هذا كله في مذكراته ، فلن أتوسع أكثر من ذلك حـول الموضوع ٠ على أنه لا بد لي من أنأذكر أنني في كلمرة أعود فأتذكر ذلك ، ينتفخ قلبي ، وأتصور بوضوح تام فرحتي بأنني قد أصبحت قادرة على الانطلاق من جديد ، وقـد تبددت مع اللهب الذي أشعله الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ ، جميع الذكريات البغيضة التي كنت أحتفظ بها حتى ذلـك التاريخ ٠

وعينني الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ بعدئذ كطباخة في المقر العام ، ولم أتوقع أن يضع بي هذا القدر من الثقة بمثل هذه السرعة ٠ وترددت في قبول مهمة على هذا المستوى من الاهمية ٠ الا أن الرفيق ـ كيم ايل سونغ قد استقرأ في فكري وأنا أتردد غير قادرة على الاجابة فورا بجواب دقيق ، فشجعني من جديد اذ قال انه قد كلفني بهذا العمل نظرا لاهميته العظمى ٠

ومنذ ذلك الحين ، باشرت العمل كطاهية في المقر العام قريبة من الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ ٠

وبينما كنت أغسل الاواني ذات يوم ، بعد انقضاء بعض الوقت على مغادرة الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ المعسكر ومعه بعض الوحدات لمهاجمة العدو ، جاءني رئيس الادارة والتموين ليطلب مني العمل في معسكر سري في المؤخرة ، مخصص للعناية بالمرضى ٠

فأحزنتني كلماته ٠ ما السبب في أن يأمرني بالذهاب الى المؤخرة ؟ كنت أريد أن أستوضح منه مفصل السبب في ذلك ، ولكنني لم أفعل لاعتقادي بأن طرحي مثل هـــذا السؤال كان في غير محله ، خاصة باعتبار أنني كنت قـد مارست عملا بمثل هذه الاهمية كطباخة الرفيق القائد ٠

هل من اساءة في كل ما قمت به من عمل ؟ ـ لا ، كان ذلك مستحيلا ٠٠ فهل يريدون ابعادي عن الرفيـــق القائد ؟

حاولت أن أضبط نفسي ، الا أنني كنت عاجزة عن التخلص من الهواجس والقلق ٠ فلو ان الرفيق القائد كان هنا ، لاوضحت له بصراحة كل ما يجيش في نفسي ، ولكنه الان غائب ، وكنت تعيسة جداً ٠

وتركت المقر العام وأنا أحس بمشاعر الاسى تلك ٠ ولكنني أينما كنت وايان أذهب ، فسوف أبذل قصارى جهدي في أي مركز تستفيد فيه الثورة مني ٠ واني لمن يكرس نفسه لقضية الثورة ان ينتقي مركز استخدامه بنفسه ؟ وكنت أسعى لتهدئة نفسي بهذه الفكرة ٠

وذهبت في اليوم التالي الى المعسكر الخلفي كمـا أمرت ٠ ووجدت هنالك خمسة من المرضى أو ستة ٠ وكنت أعد لهم الطعام وأعتني بهم باذلة كل مافي وسعي للقيام بواجباتي كاملة على أحسن ما يمكن أن يكون ٠ الا أنني عندما كنت أفكر بما حدث لي ، فقد كان التخوف من فكرة أن لا بد من أن يكون هنالك سبب في نقلي من المقر العام ، أقرب الى التغلب في نفسي ٠

على أنني كلما فكرت بالموضوع ، كنت أحس بأن الرفيق القائد سوف يجلي شكوكي بكل التأكيد ويوضحها يوما ٠ مهما يقل الاخرون ، ومهما تكن نظرتهم نحوي ٠ وفيما كنت أحدث نفسي بذلك ، كنت أعمل بكل مافي وسعي لخدمة المرضى ٠

وبعد انقضاء اسبوع تقريبا على تركي المقر العام ، جاءني الرفيق ـ بيك هاك ريم ـ يوما مستعجلا ليراني ، ولم أصدق أذني عندما أعلمني بأن الرفيق القائد قد حضر الى معسكرنا ٠ فنهضت وأسرعت الى الخارج دون أن أضيع الوقت في التفكير بمظهري الشخصي ، ووجدت الرفيـــق القائد واقفا منتصبا أمام كوخنا المغطى بالقش ٠ فأمسك بيدي بحرارة وقال : (٠٠٠ لا بد انك قد قمت بعمل جاد في العناية بالمرضى) ٠ ثم دخل الى الكوخ وهو يسألني عما

اذا كان عملي أكثر مشقة من ذي قبل • وعما اذا كنت بخير ويستوضح عن أحوال المرضى •

وحاول المرضى الموجودون في الكوخ أن ينهضـوا لتحيته الرفيق القائد ، فأومأ اليهم بالبقاء كما كانـوا ، وجلس الى جوارهم ، وطرح عليهم أسئلة مفصلة عن أحوالهم الصحية ، وأعطاهم شرحا دقيقا حول ما كان يجري في المقر العام •

وبينما كان يتناول طعام الغذاء مع المرضى بذلك اليوم ، امتدحني الرفيق القائد بقوله : ان ما تعده ـ مامان تشول كو ـ من طعام يمتاز بطعم لذيذ جـدا ، أليس كذلك ؟

ولم أتمكن من رفع رأسي ، اذ كانت عيناي مغرورقتين بالدموع • وبعد الغذاء بقليل ، استدعاني الرفيق القائد وهو يستعد للرحيل ، وطلب مني أن أتأهب للذهاب معه الى المقر العام ، وقال بأنه قد اتخذ الترتيبات اللازمة لان تحل محلي في العمل هنا واحدة أخرى من الرفيقات •

وعندما التحقت بالمقر العام ، وجدت أن هنالك لباسا وأحسست كأني أبتلع كرة في حنجرتي وأنا أفكر بـأن الرفيق القائد يثق بي ثقة عميقة بالرغم من كوني قـد استبعدت عن الاخرين على اعتباري متهمة بالانتماء الى الـ ـ مين سينغ دان ـ • وحتى بعد أن نقلت الى القطعات وتحولت للعمل في معسكر سري في المؤخرة ، بينما كنت أعمل كطاهية في المقر العام •

الا أنني حتى في ذلك الحين ، لم أكن لادرك مدى ثقته العميقة بي ، واعتباره وتقديره لي ، تمام الادراك •

وعندما التحقت بالمقر العام ، وجدت أن هنالك لباسا جديدا قد أعد من أجلي • وحياني الرفاق في المقر العام تحية حارة ، وحدثوني عن اللباس الجديد • فبعد أن غادرت المقر العام ، عاد الرفيق القائد من المعركة • وبينما كان يحدث الرجال العاملين في الادارة والتموين عن مآثـر الرجال في القتال وعن بطولاتهم ، أخرج قطعة من القماش ووضعها جانبا وقال لهم •• اصنعوا بهذا القماش لباسا جديدا لـ ـ مامان تشول كو ـ •• فلقد لاقت عذابا على أيدي أناس أشرار ، وقد يسبب ذلك الفتور في اندفاعهـا ونشاطها • وعلينا أن نعاملها بلطف كما لو أننا كنـا أشقاؤها وشقيقاتها الحقيقيين) • وهكذا فقد أعطى التعليمات شخصيا الى الخياطين بأن يصنعوا لي لباسا جديدا •

وكنت أجهل أن الرفيق القائد كان يحزنه عـدم توفر الملابس لدي ، رغم أنني كنت أكبر سنا من بقيـة عناصر وحدة الانصار • وعلمت عندئذ بأن الرجال العاملين بالادارة والتموين قد فكروا لاول مرة تفكيرا عميقـا في عملهم اذ أرسلوني الى المؤخرة دون أن يلاحظوا ما يكنـه الرفيق القائد من عطف حار نحوي •

وعلمت فيما بعد بأنهم قد قرروا نقلي الى مركـز جديد ، لانهم اعتبروا ان اشغالي عملا هاما كطاهية في المقر العام ، حيث يوجد الرفيق القائد ، بينما أنا متهمة بالانتماء الى الـ ـ مين سينغ دان ـ ، شيء في غير محله • وقد قيـل لي كذلك بأنهم عندما أدركوا خطأهم فقد عرضوا الموضوع على الرفيق القائد •

وروي لي أن الرفيق القائد أبدى أسفه العميق لما قد حصل •

(••• وأنا أيضا ، لا أعرف كل شيء عن واقع ما كانت عليه ـ مامان تشول كو ـ ، الا أنني على يقين من أنها مصممة على الكفاح باخلاص في سبيل قضية الثورة • ولكن هنالك شيئا آخر لا بد لي من أن أوضحه لكم • ذلك أن للقضايا العظيمة جميعا بداية صغيرة متواضعة • ولا يغربن عن بالنا أبدا أن كل خطأ أو فشل ، يمكن أن يكون سببه جدل تافه أو منازعة باطلة • فبقدر ما يكون واحدنا ثوريا بقدر ما يكون مؤهلا بما هـو ضروري لتوفير القدرة على التعامل مع عامة الناس • وفي علاقاته معهم ، فـان استقصاء نواقص الاخرين والبحث عنها ، وتكوين قناعات مسبقة ، والتشبث بأفكار ثابتة والاشتباه والشك والاتهام شيء ، والعمل بحذر واحتراس شيء آخر يختلف عنه تمام الاختلاف •

وبعد أن حصل هذا ، فقد وجد الرفيق القائد وقتا لزيارة المعسكر رغم مشاغله • ولما سمعت بذلك جاشت في نفسي مشاعر كثيرة ، وصعب علي أن أكظم غيظي وأخفي تأثري • فكيف يستطيع الرفيق القائد أن يعتني بواحدة من الانصار ، وهو الذي يحمل على كاهله مصير الثورة الكورية ويقود الى النصر كفاحنا المسلح ضد اليابانيين ؟

يعتبر الناس أنهم مدينون بالدرجة الاولى لامهاتهم ، وقد حملنهم ، والى أبويهم وقد ترعرعوا في أحضانهـم وعناياتهم وحنانهم ، ولكن بماذا أستطيع أن أشـبه ديني للرفيق القائد ، وقد أنقذ سمعتي السياسية ، فتمكنت من متابعة المسير على طريق الثورة دون أي دنس في حياتي ؟ وعاهدت نفسي من جديد عهدا قاطعا على أن التزم التزاما صلبا بمبادىء الرفيق ـ كيم ايل سونغ ـ ، زعيم ثورتنـا

العظيم وبادارته ، وعلى أن أبقى مخلصة له حتى النهاية في كفاحنا الثوري ٠

وهكذا فقد عدت الى المقر العام ، وتلقيت مزيدا من الدروس والعبر ، وأنا قريبة من الرفيق القائد ٠ ولا مجال للقول بأنني وأنا أعمل كطاهية للمقر العام، بينما الانصار يمارسون أعمالا سياسية مباشرة أو يشاركون في خوض المعارك ، لا أستطيع التحدث عن أسلوب الرفيق القائد في قيادته الكفاح المسلح ضد اليابانيين نحو النصر المبين ، كما ولا يجوز لي التحدث عن طريقته في سياسة الامور ، وفي اتخاذ الاجراءات الحكيمة والمواقف المجيدة ، فأحسن وحقق النتائج الباهرة ، وهو يمسك بمصير الثورة الكورية بين يديه ٠

على أنني كنت أحس من خلال عنايته بالانصار بدقة عميقة ، ومن خلال عديد مما كنت ألاحظه من الاشياء الصغيرة والعادية في تلك الحياة اليومية ، بأن زعيمنا أفضل الرجال وأعظمهم ٠

وعملت لمدة خمس سنوات كطاهية في المقر العام ، ولكنني لم أتمكن خلال السنوات الخمسة ، ولو لمرة واحدة فقط ، أن أعد للرفيق القائد طعاما يختلف عما يقدم لبقية عناصر المقر العام ، وكذلك لم أتمكن من أن أقدم له طعاما خاصا ٠

وواضح أنه لم يكن بمقدورنا اعداد طعام جيد حقا خلال تلك الفترة بطولها ، على أننا كثيرا ما فكرنا بأن نهيء للرفيق القائد طعاما خاصا حتى ولو لم يكن سوى في حدود طبق واحد ، وهو الذي كان يحمل على عاتقه مصير الثورة الكورية ، ولا يجد متسعا من الوقت يمكنه من الحصول على قسط كاف من الراحة أو النوم ، ولكن الرفيق القائد لم يسمح لنا قط بأن نفعل هذا ٠

وكان الرفيق القائد يحب أن يتناول الطعام مع الرجال ٠ وعندما يتناول طعامه وحيدا في ظروف اضطرارية لا يبدأ بالاكل الا بعد أن يتأكد من أن جميع عناصر الفتيان قد أكلوا ، ويتثبت من أن بقية الرجال قد تناولوا طعامهم وانتهوا ٠

وكما يعلم الجميع من خلال ما ظهر حتى الان من مذكرات ، لم يكن نادرا أن شاهدت الرفيق القائد بأم عيني وأنا أعمل كطاهية ، وهو يعطي الرجال الاخرين وجبة جريش الذرة المخصصة له ٠ وليس هذا فقط ، فان الرفيق القائد كان يساعدنا في أعمالنا نحن الطباخات ٠

والحق يقال ، لقد كان الطبخ بذلك الوقت معركة بحد ذاته ، فلم يكن الطعام الرئيسي وحده غير مرض ولا حتى الوجبات الثانوية ولا أواني المطبخ ، وانما بالاضافة الى ذلك كله ، وتصعيدا للصعوبات جميعا فقد كانت وحدتنا دائمة التنقل بسبب المعارك المتواصلة مع العدو ، وبذلك لم تكن مهمة انجاز اعداد الطعام من الواجبات السهلة اطلاقا ٠

ولقد كان الوضع أسوأ شتاء ٠ فرغم أننا كنا في الجبال ، فمن الخطأ الكبير الظن بأنه كان بوسعنا جمع الحطب لاشعال النار حيثما نذهب ٠ وكذلك فلقد كان الحصول على الماء أصعب من هذا ، اذ كان علينا أن نذيب الثلج لنوفر الماء ٠ ولكن صندوقا من الثلج كان لا يكاد يملىء قصعة واحدة من الماء وفي مثل تلك الاوقات ، كان الرفيق القائد يأتي لمساعدتنا في اعداد الطعام فيشمر عن ساعديه ويطلب من الانصار مساعدتنا في اعداد الوجبة ٠

وكان الرفيق القائد يكسر الاغصان الخضراء ، وهي تحتوي ماء كثيرا ، ويضعها في صفين ليجعل القصعات فوقها وهو يقول : « هكذا يمكنكن طهي كمية كبيرة من الارز على البخار دفعة واحدة » ٠

وبينما كان يعلمنا بالتفصيل مدى أهمية مهمة الطباخات في الجيش ، كان يساعدنا في التغلب على الصعاب ٠

« ٠٠٠ ان طريق الثورة صعب وشاق ، وقد تنتظرنا أحيانا صعاب ومحن غير متوقعة ، ولكن الثوريين الحقيقين هم وحدهم الذين يستطيعون التغلب عليها ٠ هذه هي حقيقة الثورة » ٠

وقد نمت سهوا ذات ليلة وأنا أطهي الذرة على البخار، بعد أن أمضيت ليال طويلة دون نوم بسبب كثافة الاعمال وكثرتها ٠ وعملت لساعة متأخرة في ذلك اليوم ٠ وبعد أن نمت لبعض الوقت ، استيقظت ونهضت مرتعشة اذ لاحظت أنني قد غطيت بمعطف مبطن ناعم دافيء ٠ ونظرت الى المعطف ، وعرفت فيه المعطف الذي أعد للرفيق القائد قبل أيام ٠ ولكنه كان لا يرتديه كثيرا وانما يحمل أحد الرفاق على ارتدائه عندما يقوم بالخفارة والحراسة ، وهو يقول بأن البرد قارص في الخارج ٠ ورفعت المعطف بهدوء ونظرت نحو معسكر الرفيق القائد ، وكان هنالك مصباح يضيء ، وعندما نهضت وأنا أثبت نظري بالمصباح ، والمعطف بيدي ، تمثلت الرفيق القائد وهو يعمل في ضوء المصباح ، في الاعداد

لمستقبل الثورة الكورية ، وفي التحضير لمعارك جديدة مظفرة فغمر قلبي وطفح وقلت في نفسي بأن أي برد ، مهما قسا ، لا يمكن أن يكون سببا يقلقنا نحن الذين نعيش برعاية الرفيق القائد وحنانه الدافيء ۰

ولم يكن هذا النوع من التجارب ليقتصر على وحدي ، فلقد كان في المقر العام لحاف صغير مبطن ، وكانت البطانيات قليلة جدا ، الا أن الرفيق القائد كان لا يستعمل حتى ذلك اللحاف المهلهل الذي كان يتنقل بين الرفيق القائد والحجاب مرات عديدة في كل ليلة ، وغالبا ما يشاهد قريب الفجر فوق الحاجب التعب شبه النائم ۰

كن الرفيق القائد يعتني بجميع مجالات حياتنا ، ويدير شؤون الانصار ويقودهم بحيث يعيشون دائما في جو واضح دائم الحركة يشعرهم بصلابة التكامل فيما بينهم ۰

وعندما توجه ملاحظة لبعض الرفاق ، أو يعاقبون ، فقد كان الرفيق القائد يعد ترتيبا لاقامة لقاءات سمر كلما سنحت الفرصة ، لئلا ينهاروا أو تضعف ثقتهم بأنفسهم فيتأثر اندفاعهم ، وكان يسر بالغناء مع الرجال فيشاركهم في انشاد الاناشيد ، ويكسبهم دفعا جديدا ۰۰۰

ـ ماما تشول كو ـ ، هلاّ غنيت لنا أغنية ؟ وفي كل مرة كان الرفيق القائد يقول لي هذا ۰۰ فمن ذا الذي لا ترتاح نفسه في مثل هذا الجو ؟

ولم يكن حب الرفيق القائد العميق للانصار وعنايته بهم ليتجلى نحو أولئك الذين يعملون أو يقاتلون بقربه دون سواهم ۰ فبينما يكون الانصار أحيانا بعيدين عن المقر العام كان يتحدث عنهم ويفكر بهنائهم مهما تكن الظروف صعبة والاوضاع معقدة ۰

وفي حزيران ۱۹۳۹ ، بعد معركة مقاطعة ـ موسان ـ مباشرة ، اضطررت للبقاء في المؤخرة بسبب وعكة صحية ألمت بي ۰ فانتفخت أعضائي فجأة ، وارتفعت حرارة جسمي وانتابتني حمى منعتني عن الحركة تماما ۰

وبذلك الوقت أمر الرفيق القائد بأن يقيم لي الانصار كوخا يغطيها القش في غابة قرب ـ وو تاو يانغ شا ـ في مقاطعة ـ آن تو ـ ، وأبقى معي واحدة من الرفيقات لتعتني بي ۰ ولم يكن لدينا كوخ وطعام وغذاء وحسب ، وانما كان لدينا حطب جاف لاشعال نار لا يثير الدخان ، واضافة لهذا كله فقد أعطى التعليمات اللازمة لمعالجتي ۰ فأي حنان هذا الذي يقلقه على واحدة من الانصار وهو المشغول في حمأة النضال ۰۰ ! وكانت الرفيقة ـ كيم دجونغ سوك ـ ، التي بقيت معي واعتنت بي ، تغسل يدي بالماء الساخن وتجمع صمغ الصنوبر ، وتذيبه على النار وتجعله على ذراعي حسب تعليمات الرفيق القائد ۰ وقد سعينا بكل ما يمكن عمله لبلوغ شفاء عاجل ، منتظرين على أحر من الجمر ، ذلك اليوم الذي نعود فنلتحق فيه بوحدتنا من جديد ۰

وكانت أفكارنا تتابع رفيقنا القائد ، وتتابع وحدتنا وكلما التقى نظرنا ، كنا نتحدث عن المكان الذي يفترض أن يتواجدوا فيه الان ، وعن المكان الذي يمكن أن يكونوا قد اشتبكوا فيه بقتال مع العدو ، كل هذا ، في الفترة التي أعقبت مباشرة نقل جيشنا الثوري الشعبي الكوري مركز نشاطاته من الجزء الشمالي الغربي الى الجزء الشمالي الشرقي من جبل ـ بيك دو ـ ۰

وكانت الامبريالية تشن ، في تلك المرحلة ـ حملات انتقامية ـ عنيفة ضد جيش الثورة الشعبية الكورية وتستميت في ملاحقة المقر العام للثورة الكورية ۰

وبعد تحليل الموقف تحليلا دقيقا ، فقد اتخذ الرفيق القائد ترتيبا حكيما من شأنه نقل مركز نشاطنا نحو الجزء الشمالي الشرقي من جبل ـ بيك دو ـ ۰ فادركنا تمام الادراك أن الرفيق القائد ، وهو يعد العدة لعمليات عسكرية جديدة دون أن ينام ، كان يوجه وحداته لتنظيم عمل سياسي جديد وعمليات عسكرية جديدة ويصعدها ۰

حتى في مثل تلك اللحظات من الصراع العنيف وما فيه من صعوبات ، لم يكن الرفيق القائد لينسانا نحن اللواتي كن نعيش في الجبال البعيدة ۰

وقد زارنا في الكوخ يوما ، بعد أن شق لنفسه طريقا عبر الغابة الكثيفة ۰ وكان يرافقه الرفيق ـ بيك هاك ريم ـ ، وجعبته مملوءة بالدقيق وزيت الصويا وبالخضار ولحم البقر وبمجموعة من المواد الاخرى ۰

فسألنا رفيقنا القائد عن أحوالنا • « ••• لا بد من أن تكون ارادتك متينة حتى تتغلبي على مرضك • عليك أن تركزي اهتمامك بشفائك ، كي تتمكني من الالتحاق بوحدتك بأقرب وقت ممكن •• »

ولم تكن لدينا علاجات بالمعنى الصحيح ، ونحن في الغابة الكثيفة ، في أعماق الجبال • وكذلك الغذاء ، فلم يكن موفورا • ولكن ، هل يمكن أن يقارن أي علاج ، مهما كان ، بعظمة حب الرفيق القائد وهو الذي يفكر حتى في قلب المعركة بواحدة من الانصار ، مريضة طريحة الفراش، بعيدة جدا عن الاخرين ، ويهتم بصحتها بهذا القدر من العناية ؟ وتأثرت جدا لاهتمام الرفيق القائد وما فيه من عمق اذ زارني شخصيا بعد أن اجتاز تلك الغابة الكثيفة ، ورغم أنني كنت قد عانيت وقتئذ من الحمى الشديدة ، معزولة في طرف الغابة ، فقد شفيت من مرضي وتمكنت من النهوض •

وسرعان ما تماثلت للشفاء بعد زيارة الرفيق القائد مباشرة • وما أن تمكنت من السير قليلا حتى قمت بغسل ملابسي ، وفي سري أمل بأن أعود فألتحق بالوحدة خلال بضعة أيام • وبهذا الوقت بالذات جاء الرفيق القائد لزيارتي ثانية •

وما أن شاهدته يدخل الى الكوخ حتى أخذت أصيح كما يفعل طفل هائج : « الرفيق القائد •• » وأسرعت أجري نحوه •

وسر الرفيق القائد اذ رآني قد تحسنت من جديد ، وقال بصوت حار : « لا بد أنك قد أمضيت وقتا صعبا جدا ما أسعدني اذ أراك الان وقد استعدت صحتك من جديد » •

وغادرنا بالحال مع الرفيق القائد ، الا أنني كنت أسعى للبقاء في المؤخرة وأنا أسير بعد ذلك المرض الطويل ، حتى أني كنت أتأرجح أحيانا • وما أن رآني الرفيق القائد أسير على هذا الشكل حتى هب لمساعدتي بنفسه ، على السير بخطوات أمتن • وبينما كنت أسير عبر الغابة والرفيق القائد يساعدني ، امتلأ قلبي بمشاعر لا توصف •

ورغم أني كنت قد استبقيت بعيدة عن الاخرين فيما مضى باعتبار أني متهمة بالانتماء الى الـ ـ مين سينغ دان ـ وتألمت لذلك كثيرا فان الرفيق القائد قد أعاد الي العزم بما أولاني اياه من ثقته الكبيرة تلك ، وأحاطني به من عنايته ، فأصبحت احدى مقاتلاته الثوريات الجيدات •

لقد كان الرفيق القائد يولينا ثقة تنبعث من القلب أما نحن ، فكنا من جانبنا نعيش ونقاتل ونضحي بصدق واخلاص ، وفقا لتعاليمه •

فما السبب في أن الانصار ، أعداء اليابانيين ، كانوا قادرين على أن يبرهنوا عن بطولة نادرة وعن شجاعة خارقة على هذا المستوى ، ويصارعون العدو بقدرة قتالية لاتقهر، في سبيل احراز الانتصارات على مدى تلك السنوات بطولها ، وأين يكمن مصدر قوتهم ••؟

انه لا يمكن أن يوجد الا في ادارة الرفيق القائد الحكيمة وفي تلاحم الانصار ضد اليابانيين تلاحما قائما من حوله أشبه ما يكون بالفولاذ •

كن الرفيق القائد يعتني برجاله ويحبهم حبا لا حد له ودون تحفظ ، وكانوا هم بدورهم يحترمونه احتراما عميقا وينفذون تعاليمه بحماس بالغ ، وكانوا متحدين بصلابة وتصميم في سبيل تحقيق استقلال وطنهم ونصرة الثورة وانتصارها ، بعقيدة واحدة وارادة واحدة •

ويخوض وطننا اليوم صراعا عنيفا في سبيل تطبيق مقررات مؤتمر الحزب التاريخي والمنهاج السياسي العظيم ذي البنود العشرة الذي أعده رئيس المجلس ـ كيم ايل سونغ ـ •

ان حزبنا ليدعو الجماهير للعمل ، واضعا فيها ثقته العميقة • وتبذل الجماهير الجهد على أعلى المستويات لتنفيذ المخططات والبرامج وفقا لتعاليم الحزب والزعيم الحكيمة •

ان وحدة الصفوف سياسيا وعقائديا هي الضمان الاساسي لاستمرار النصر ، وهي الان ضمان للمستقبل كما كانت في الماضي •